دكتور بهاء الأمير

السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل



٢٠٢٠م

دكتور بهاء الأمير

السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل(•)



٢٠٢٠م

•) من كتاب: بذور المشروع اليهودي في الشام.

وأما الرجل الذي أدرك خطورة ما يحدث، وما يترتب على تسلل اليهود إلى فلسطين، ورأى عبر حجب الغيب توابعه وآثاره، فهو السلطان عبد الحميد الثاني، فما أن صعد إلى سدة السلطنة، حتى أصدر تعليمات للحكومة العثمانية بمنع بيع الأراضي في فلسطين لليهود، ويقول المؤرخ اللبناني وأستاذ التاريخ في جامعة بيروت العربية، دكتور حسان حلاق، في كتابه: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية، إن السلطان عبد الحميد الثاني، أرسل مع توليه الحكم، محمد رؤوف باشا، متصرفاً على القدس، وظل على متصرفية القدس، من سنة ١٨٧٦م إلى سنة ١٨٨٨م، وكان:

"رجلاً مستقيماً نظيف اليد، فأخذ يرسل بين الحين والآخر القوات العثمانية للبحث عن اليهود المقيمين بطريقة غير قانونية، وكان رؤوف باشا في صراع مع اليهود منذ عام ١٨٧٨م، ومن المعارضين للهجرة اليهودية، وكثيراً ما تنازع مع القنصلين الروسي والألماني لاحتجاجاتهما المتكررة ضده، بسبب ملاحقاته للمهاجرين اليهود، وكان لردود الفعل العربية أثر واضح في سياسة رؤوف باشا، حين اجتمع أكثر من مرة مع المتنورين من العرب، الذين أبدوا معارضتهم للهجرة اليهودية، سواء بتقديم العرائض، أو بالهجمات على المستوطنات اليهودية"[1].

وكانت الأستانة قد تنبهت أواخر عهد السلطان عبد العزيز، إلى خطورة الأوضاع في القدس، وأطماع اليهود فيها، فأصدرت الحكومة العثمانية، سنة ١٨٧٤م، قراراً إدرايباً، بتحويل القدس والمناطق التابعة لها من سنجق/لواء يتبع والي الشام، إلى متصرفية مستقلة تتبع الباب العالي مباشرة، وهو الذي يقوم بتعيين متصرفها ويتلقى منه المعلومات ويصدر له التعليمات، وكانت متصرفية القدس تشمل خمسة أقضية، هي قضاء القدس، وقضاء الخليل، وقضاء يافا، وقضاء غزة، وقضاء بئر السبع.

وفي دراسته: السياسة العثمانية والقيود على الاستيطان اليهودي في فلسطين Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine,1881-1908،

١) دكتور حسان حلاق: موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧م-١٩٠٨م، ص٩١، جامعة بيروت العربية، طبع في دار الأحد إخوان، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م.

التي نشرها سنة ١٩٧٤م، في المجلة الأكاديمية لدراسات الشرق الأوسط Middle Eastern Studies، التي تصدر في لندن، وكانت مصادره الأساسية فيها أرشيف وزارة الخارجية البريطانية، وتقارير سفيري بريطانيا والولايات المتحدة في الأستانة إلى حكومتيهما، وأرشيف الاتحاد الإسرائيلي العالمي في باريس، والأرشيف المركزي للمنظمة الصهيونية في القدس، مع المصادر والصحف اليهودية المعاصرة للأحداث، وهي الدراسة التي جعلها الباب الأول من كتابه: العرب والصهيونية قبل الحرب العالمية الأولى The Arabs And Zionism Before World War I، في دراسته وكتابه يقول المؤرخ الأمريكي وأستاذ التاريخ في جامعة هارفارد، نيفل ماندل Neville Mandel، إنه في شهر نوفمبر ١٨٨١م، أصدرت الحكومة العثمانية قانوناً لتنظيم هجرة اليهود، نصه:

"يُسمح للمهاجرين اليهود بالاستيطان، كمجموعات متفرقة As Scattered Groups، في أي مكان من المناطق التابعة للباب العالي، ما عدا فلسطين Excluding Palestine، على أن يخضعوا لقوانين الدولة، ويصبحوا مواطنين عثمانيين"(١)، (٢).

وبعد إصدار القانون وإعلانه، وبتحريض من جمعية أحباء صهيون Lovers Of Zion، في روسيا، توافد اليهود الروس على القنصلية العثمانية في أوديسا Odessa، التي تطل على البحر الأسود، طالبين الحصول على تأشيرات لدخول فلسطين، فأرسلت الحكومة العثمانية، في أبريل ١٨٨٢م، إلى قنصلها في أوديسا، رداً مكتوباً، وتم تعليقه باللغتين التركية والروسية خارج مقر القنصلية، وكان نصه:

"الحكومة العثمانية تُعلم اليهود الراغبين في الهجرة إلى تركيا، أنه ليس مسموحاً لهم الإقامة في فلسطين Not Permitted To Settle In Palestine، وأنه يمكنهم الهجرة والاستقرار في أي منطقة أخرى من الإمبراطورية يرغبون فيها، بشرط أن يصبحوا رعايا

---

1) Neville Mandel: Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, p313.
2) Neville Mandel: The Arabs And Zionism Before World War I, P2, University Of California Press, Berkeley And Los Angeles, California, University Of California Press, Ltd., London, England, 1976.

عثمانيين، ويلتزموا بقوانين الإمبراطورية، وأرسل الباب العالي في ٢٩ يونيو ١٨٨٢م تعليمات إلى متصرف القدس بمنع يهود روسيا وبولندا ورومانيا وبلغاريا من دخول القدس"(١)، (٢).

ودفعت حركة أحباء صهيون يهود روسيا إلى الهجرة إلى فلسطين، عن طريق تجاوز القوانين العثمانية، بالحصول على تأشيرات لدخول الأستانة، ثم الإبحار منها إلى موانئ فلسطين، باعتبار أن التأشيرة إلى الأستانة تمنح صاحبها حرية التنقل في أي مكان من الدولة العثمانية، وفي يوم ٢٩ يونيو ١٨٨٢م:

"أبحرت مجموعة صغيرة من أحباء صهيون، عددها أربعة عشر شخصاً، من القسطنطينية/الأستانة، إلى يافا، وفي اليوم نفسه، أرسل الباب العالي برقية إلى متصرف القدس، يأمره ألا يسمح لأي يهودي قادم من روسيا أو رومانيا أو بلغاريا بأن يهبط في يافا أو حيفا، وأنه ليس مسموحاً لهؤلاء اليهود أن تطأ أقدامهم مدن القدس والخليل وصفد وطبريا، ويجب أن يُرسَلوا فوراً إلى أي ميناء عثماني آخر على متن السفينة التي قدموا عليها، وعندما طلب المتصرف توضيحاً بخصوص اليهود الموجودين فعلاً، جاءته الأوامر من الأستانة بطرد جميع اليهود الذين استوطنوا فلسطين خلال الأشهر الأربع السابقة، ما عدا اليهود الذين قدموا للحج أو التجارة، وعلى أن يكون بقاؤهم لفترة قصيرة، وفي ٢١ يناير ١٨٨٣م أرسل الباب العالي إلى رؤساء البعثات الدبلوماسية في القسطنطينية/الأستانة مذكرة بقرار الحكومة العثمانية منع استيطان يهود روسيا في فلسطين"(٣)، (٤).

وحركة أحباء صهيون חובבי ציון، حركة أسسها الطلاب والشباب اليهود في روسيا، ثم صارت تضم خليطاً من الشباب والحاخامات واليهود الأثرياء، وأبرز قادتها عند تكوينها ليون بنسكر Leon Pinsker، وأشر زئيفي جنزبرج Asher Zvi Ginsberg، الذي اتخذ لقب أحد هاعام/واحد من الشعب אחד העם، وكانت بداية الحركة في أوديسا، سنة ١٨٨٢م، ثم انتشرت

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, p313.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P2.
3) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, p321-322.
4) The Arabs And Zionism Before World War I, P5-6.

وصار لها فروع في أغلب مدن روسيا، ثم تمددت وصار لها أتباع وفروع في دول شرق أوروبا، خصوصاً رومانيا وبلغاريا، ثم في دول غرب أوروبا، خصوصاً انجلترا وفرنسا، وفي الولايات المتحدة الأمريكية، وكان البرنامج الرئيسي للحركة يقوم على بعث الهوية اليهودية وإحياء اللغة العبرية، وتحريض اليهود على الهجرة إلى الأرض المقدسة وإقامة مستوطنات زراعية بها، وفي شهر نوفمبر ١٨٨٤م، كما يقول المؤرخ الصهيوني إسرائيل كوهين Israel Cohen، في كتابه: تاريخ موجز للصهيونية A Short History Of Zionism:

"اجتمع أربعة وثلاثون من قادة الحركة، في مدينة كاتوفيتز Kattowitz، في ألمانيا (تقع الآن في بولندا)، وعقدوا مؤتمراً برئاسة الربي اليهودي البولندي صمويل موهيليفر Samuel Mohilever، وتقرر أن يبدأ المؤتمر أعماله في يوم ميلاد السير موشيه مونتفيوري، بمناسبة بلوغه مائة عام، وانتخب ليون بنسكر رئيساً للمنظمة، وقرروا توحيد عمل الجمعيات التي تم تأسيسها لتهجير اليهود إلى فلسطين وإقامة مستوطنات زراعية بها، واتفقوا على تسمية هذه الجمعيات: رابطة مونتفيوري لتنمية الزراعة بين اليهود ودعم المستوطنات اليهودية في فلسطينMontefiori Association For Promotion Of Agriculture Among Jews And Especially For the Support Of The Jewish Colonies In Palestine، وبعدها زار بنسكر البارون إدموند روتشيلد في باريس، ووافق روتشيلد على رعاية المنظمة وتمويلها"[1].

وحركة أحباء صهيون هي التي ينسب لها اليهود شرف إقامة أول مستوطنة في فلسطين، وهي مستوطنة ريشون لتسيون[•]، Rishon LeZion، רִאשׁוֹן לְצִיּוֹן، ومعناها: الأول إلى صهيون، وهو كما رأيت في الكتاب الذي بين يديك ليس صحيحاً، فأول مستوطنة هي بتاح تكفاه، التي أقامتها حركة بيلو، في وادي نهر العوجا سنة ١٨٧٦م، ثم هجرتها، وأعيد استيطانها مرة أخرى سنة ١٨٨١م، بتمويل من إدموند روتشيلد، وعندنا أن شرف المستوطنة الأولى ليس

1) Israel Cohen: A Short History Of Zionism, P32-33, Frederick Muller Ltd., London, 1951.

•) اسم المستوطنة: الأول إلى صهيون، مأخوذ من عبارة في سفر إشعياء، نصها: "ראשון לציון הנה הינם ולירושלים מבשר אתן"، وترجمتها الرسمية: "أَنَا أَوَّلًا قُلْتُ لِصِهْيَوْنَ: هَا! هَا هُمْ. وَلأُورُشَلِيمَ جَعَلْتُ مُبَشِّرًا" (إشعياء: ٤١ :٢٧).

لحركة بيلو، ولا أحباء صهيون، بل هو حق خالص لليهودي موشيه مونتفيوري مناصفة مع أول الآتين من الخلف وخريج حارة اليهود اليونانية، محمد علي باشا، فهما رواد الفكرة ومن حازوا شرف المحاولة الأولى.

"......................."

ونعود بك إلى الإجراءات العثمانية، لغلق ثقوب القناصل والامتيازات، التي يتسرب منها اليهود إلى فلسطين ويستولون على الأراضي لزراعتها والاستيطان بها، فبعد أن تمكن أعضاء حركة أحباء صهيون من الوصول فعلاً إلى فلسطين:

" قرر الباب العالي، في مارس ١٨٨٤م، وبعد مشاورة المستشارين القانونيين، إغلاق فلسطين أمام جميع التجار وأصحاب المشاريع اليهود To Close Palestine To All Jewish Business Men، على أساس أن قوانين الامتيازات التي تمنح الأوروبيين حرية التجارة في الإمبراطورية العثمانية، تسري حصرياً على المناطق الصالحة للتجارة، والحكومة العثمانية ترى أن فلسطين ليست من بين هذه المناطق، وبذلك لم يعد دخول فلسطين مسموحاً به، سوى للحجاج اليهود"[(١)، (٢)].

ومع تفاقم أوضاع اليهود في روسيا، والإجراءات العقابية المشددة التي اتخذتها الحكومة القيصرية ضدهم، وطردهم من موسكو والمدن الكبرى:

"قدمت القوى الأوروبية، في ٢٨ يونيو ١٨٩١م، مذكرة إلى وزير الخارجية، سعيد باشا، للسماح بدخول اليهود المهاجرين من روسيا، واستيطانهم في مناطق الإمبراطورية، وعند عرضها على عبد الحميد، كتب عليها: "لن نشرع في مسار يبدأ بقبول الإمبراطورية للمطرودين من كل مكان، لينتهي في المستقبل بتكوين حكومة يهودية في القدس، وإذا كان ضرورياً يمكن أن يُرسَل هؤلاء إلى أمريكا، وإذا قدِم هؤلاء وأمثالهم فلن نقبلهم، وسوف

---

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, p322.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P6-7.

يُرحَلون فوراً على متن سفنهم إلى أمريكا"، وفي ١٩ أكتوبر ١٨٩١م، أصدرت الحكومة العثمانية، بناءً على توجيهات عبد الحميد، قراراً بغلق الإمبراطورية كلها أمام اليهود الأجانب من جميع الجنسيات Closed The Empire To Foreign Jews Of All Nationalities، بدعوى أنهم يهددون الصحة العامة، وأرسلت تعليمات مشددة إلى المسؤولين العثمانيين في جميع أنحاء الإمبراطورية بعدم منح اليهود تأشيرات دخول، وعدم السماح لشركات الملاحة العاملة في الدولة بنقل اليهود على سفنها، ولمنع اليهود الأجانب من شراء الأراضي باسم يهود الدولة، أرسلت القسطنطينية/الأستانة، في نوفمبر ١٨٩٢م، أوامر إلى متصرف القدس بمنع بيع أراضي الميري Miri Land لجميع اليهود، حتى لو كانوا من رعايا الدولة، وأراضي الميري هي الأراضي التي لابد أن توافق الدولة على بيعها، ومعظم الأراضي في فلسطين كانت ميري، وفي سنة ١٩٠١م تم تخفيف هذا الإجراء، بالسماح ليهود فلسطين من رعايا الدولة بشراء أراضي الميري في بعض المناطق، على أن يكونوا فرادى، وليسوا مجموعات، وبشرط ألا يسمحوا لليهود القادمين من الخارج بالإقامة في أراضيهم بصورة غير شرعية"(١)، (٢).

وردُ السلطان عبد الحميد على مذكرة السفراء الأوروبيين، التي رأى فيها المسار الذي سوف يبدأه السماح بدخول المهاجرين اليهود الروس إلى الدولة العثمانية، وأدرك أن هذه خطوة أولى، سوف تتلوها خطوات، تنتهي بإقامة دولة يهودية حول القدس، رغم أن المهاجرين فقراء وفارون من الاضطهاد في روسيا، ولم يطلبوا الاستيطان في فلسطين تحديداً، ردُ السلطان عبد الحميد والإجراءات التي اتخذها، تعرفك بالفرق بين السلطان القرآني التكوين والذهن، الذي يرى المسار كله من أول خطوة فيه، وبين الأميين البقر من حكام بلاليص ستان وساستها ونخبها وحفظة الأكلشيهات من مشايخ بلاطها وأتباعهم من العميان، الذين لا يرون فيما يحدث وتراه أمامك سوى أنه من صغار الشرر، لأنهم بأدمغتهم الأمية المظلمة لا يرون إلا اللحظة التي يعيشون فيها، ولا يدركون المسار الذي سوف يترتب على هذه الصغائر، والحرائق التي سوف تندلع مع

---

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, P323-324.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P8-9.

تقدم هذا المسار وتلتهم كل شيء، وسوف يكونون هم ودولهم من ضحاياها، لكي تتمدد دولة اليهود على حسابهم، وتقيم هيكلها.

وفي الوقت نفسه، ولكي لا يصبح الحج ذريعة يقيم بها اليهود في فلسطين:

"نصت القرارات التي أصدرتها الحكومة العثمانية، سنة ١٨٨٤م، على أن يقوم القناصل العثمانيين في الخارج، بختم جوازات سفر اليهود الراغبين في الحج، ومنحهم تأشيرات، على أن يضع كل يهودي وديعة مالية Deposit، تضمن عودته، ويغادر فلسطين خلال ثلاثين يوماً من دخولها ... وفي ١٩ سبتمبر ١٨٩٩م أصدرت الحكومة العثمانية قانوناً بتعديل هذه الإجراءات، فتم إلغاء الضمان المالي، وتمديد مدة الزيارة إلى ثلاثة أشهر، وصار على اليهود الراغبين في دخول فلسطين للحج، حتى لو كانوا من رعايا الدولة العثمانية، أن يسلموا جوازات سفرهم عند دخول فلسطين، ويأخذوا بدلاً منها تصريح إقامة لمدة ثلاثة أشهر، في مقابل قرش واحد، وكان هذا التصريح يختلف في شكله عن جميع الأوراق والوثائق التي يحملها الزائرون غير اليهود، وبسبب لونه سرعان ما اشتهر باسم: التصريح الأحمر Red Slip، وكان على الحجاج اليهود أن يسلموه عند مغادرتهم فلسطين، وأصدرت الحكومة العثمانية تعليمات بعمل إحصائيات دقيقة في نهاية كل شهر عن عدد الحجاج اليهود الداخلين إلى فلسطين والخارجين منها، مع تحذيرات بإنزال عقوبات مشددة بالمسؤولين في فلسطين عند حدوث تراخٍ في تنفيذ هذه التعليمات"(١)، (٢).

وهذا التصريح أو الجواز الأحمر، الذي قيد اليهود، ومنعهم من التسلل والإقامة في فلسطين، هو ما من أجله شنت الصحف التي يسيطر عليها اليهود والماسون في أوروبا، وفي بلدان الدولة العثمانية، وفي الأستانة نفسها، حملات لا تنتهي على السلطان عبد الحميد ووصمته بالسلطان الأحمر، وهو اللقب الذي ورثه عنهم في وصم السلطان عبد الحميد به، الليبراليون واليساريون من بقر بلاليص ستان، وما زالوا يصمونه به في صحفها والكتب التي تصدرها مؤسساتها الرسمية، ولو لم يكونوا بقراً لعلموا أن هذا اللقب من مفاخر السلطان عبد الحميد رضي الله عنه

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, P322, 328.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P7,15.

ومناقبه، لا وصمة يصمونه بها، وأحد القرارات التي اتخذتها حكومة حركة الاتحاد والترقي الماسونية، بعد خلع السلطان عبد الحميد، كان إلغاء الجواز الأحمر، وفتح فلسطين أمام اليهود.

ثم جاء هرتزل:

في فبراير ١٨٩٦م، نشر تيودور هرتزل كتابه: الدولة اليهودية Der Judenstaat، الذي ظهر فيه لأول مرة مشروع الدولة اليهودية في فلسطين صريحاً، فلم تعد المسألة، كما كانت قبله، دعوة إلى هجرة اليهود إلى فلسطين للاستيطان والعمل بالزراعة، بل قال إن الحل الوحيد لإنهاء مشكلة اليهود ومعاناتهم، هو إقامة دولتهم في وطنهم القومي، فلسطين، وأثار كتابه حماسة عارمة بين اليهود في كل بلدان العالم.

وفي السنة نفسها، سعى هرتزل إلى لقاء السلطان عبد الحميد، وطلب من صديقه فيليب ميخائيل نيفلنسكي Philipp Michael De Newlinski، أن يتوسط له عند السلطان لكي يوافق على استقباله، ونيفلنسكي نبيل بولندي، وكان دبلوماسياً في السفارة المجرية النمساوية في الأستانة، ثم تركها سنة ١٨٨٠م، وأسس في فيينا صحيفة: الصحافة الحرة الجديدة[•] Neue Freie Presse، وصحيفة في باريس اسمها: رسائل الشرق Correspondance De L'Est، وإبان عمله في الأستانة توثقت صلة نيفلنسكي بالسلطان عبد الحميد، وبعد أن عاد إلى فيينا، كان السلطان يكلفه بمهام دبلوماسية خاصة في أوروبا، وصار وسيطه مع قادة الأرمن.

وتم ترتيب لقاء مع السلطان عبد الحميد، عن طريق السفير العثماني في بلجراد، توفيق باشا، وفي يوم ١٧ يونيو ١٨٩٦م، وصل هرتزل ونيفلنسكي إلى الأستانة، وفي يوم ١٨ يونيو استقبل السلطان عبد الحميد نيفلنسكي وحده، في قصر يلدز، وهذا هو وصف هرتزل نفسه في يومياته، لنيفلنسكي عند عودته من اللقاء، وماذا كان رد السلطان عبد الحميد عليه:

•) هرتزل، كان المحرر الأدبي Literary Editor، لجريدة الصحافة الحرة الجديدة من سنة ١٨٩٥م، إلى وفاته، سنة ١٩٠٤م، إلى جانب تأسيسه لصحيفة دي فيلت/العالم Die Welt، في يونيو ١٨٩٧م لتكون صوت الحركة الصهيونية. A Short History Of Zionism, P43.

"في المساء، عاد نيفلنسكي من يلدز بوجه شاحب وأخبار سيئة، وطلب زجاجة من الشمبانيا، فشرب نصفها، ثم قال: لم أفعل شيئاً، السيد العظيم لا يريد أن يسمع عن طليك شيئاً، وبعد أن تلقيت الضربة قال: السلطان قال لي: "إذا كان هرتزل صديقك، كما أنت صديقي، فانصحه ألا يخطو خطوة أخرى في هذه المسألة، فلا يمكنني أن أبيع ولو قدماً واحداً من الأرض، فهي ليست ملكي، بل ملك شعبي، وشعبي بنى هذه الإمبراطورية بالقتال وبدمائهم، ورَوَوها بدمائهم، وسوف نغطيها بدمائنا مرة أخرى، قبل أن نسمح بانتزاعها منا، لقد قُتل رجال كتيبتين من جيشنا في سوريا وفلسطين، في بليفنا(•) Plevna، دون أن

•) معركة بليفنا Plevna: انتقاماً من هزيمتها في حرب القِرم، سنة ١٨٥٦م، شنت روسيا ورومانيا حرباً على الدولة العثمانية، ووجهت روسيا في يوليو ١٨٧٧م، جيشاً بقيادة الدوق نيكولاي نيكولايفيتش Nicholai Nikolaevich، وهو ابن القيصر نيكولاي الأول وأخو القيصر ألكساندر الثاني، فعبر نهر الدانوب، واستولى على مدينة نيكوبول Nikopol العثمانية في بلغاريا، قبل أن يصل إليها الجيش العثماني الذي وجهه السلطان عبد الحميد، بقيادة المشير عثمان باشا، فتحصن عثمان باشا عشرين كيلومتراً جنوب نيكوبول، في مدينة بليفنا الاستراتيجية التي تسيطر على طرق البلقان، فوجهت روسيا جيشاً للاستيلاء على بلفينا، بقيادة الجنرال يوري شيلدر شولدنر Yuri Schilder Schuldner، فأنزل به عثمان باشا هزيمة ساحقة ورده عن المدينة، في يوم ١٩ يوليو، فوجهت روسيا جيشاً ثانياً بقيادة الجنرال نيكولاي كرودنر Nikolai Krüdener، وانضم إليه جيش رومانيا يقوده أميرها كارول Carol بنفسه، وحاصر الجيشان بليفنا، ثم شنوا عليها هجوماً مشتركاً من ثلاث جهات، يوم ٣١ يوليو، وبعد أن لاحت لهم علامات النصر، واستعدوا لاقتحام بليفنا، شن عثمان باشا وجيش الخلافة الذي كان جله من كتائب الشام، هجوماً كاسحاً، وأوقع بالجيشين الروسي والروماني خسائر جسيمة، فقتل منهم نحو ثمانية آلاف ضابط وجندي، بينما بلغت خسائر الجيش العثماني ألفي شهيد، وبعد شهر آخر من المناوشات بين الجانبين، وجهت روسيا جيشاً من مائة ألف مقاتل، يقوده الدوق نيكولاي إلى بليفنا، وانضم إليه جيش روماني من خمسين ألف جندي، يقوده الأمير كارول والجنرال ألكساندرو سرنات Alexandru Cernat، فأوقع عثمان باشا وقواته العثمانية العربية بالجيشين هزيمة نكراء للمرة الثالثة، في يوم ١١ سبتمبر، وبلغت خسائر الروس وحدهم عشرين ألف قتيل، واستشهد من قوات عثمان باشا نحو ثمانية آلاف، وفي أعقاب المعركة أصدر السلطان عبد الحميد فرماناً خاصاً بالثناء على عثمان باشا وقواته، ثم وصل إلى بليفنا الجنرال إدوارد إيفانوفيتش توتليبن Eduard Ivanovich Totleben، بطل حصار سفاستوبول Sevastopol، إبان حرب القِرم، فقرر ضرب حصار شامل حول بليفنا، وقطع طرق الإمدادات إليها، وبلغ عدد القوات الروسية الرومانية المحاصرة لبليفنا نحو مائتي ألف جندي، ورتبهم الجنرال توتليبن في ثلاثة خطوط تحيط بالمدينة من جميع الجهات، وإبان ضرب الحصار وبناء الاستحكامات، ومع كثافة القوات الروسية، وكانت قوات عثمان باشا نحو أربعين ألفاً، أرسل عثمان باشا إلى السلطان عبد الحميد يطلب منه الإذن في تسليم بليفنا، فلم يوافق السلطان عبد الحميد، وفي ليلة ٩ ديسمبر قرر عثمان باشا اقتحام الحصار المفروض حول بليفنا وفكه، فخرج على رأس قواته وكتائبه، وتمكن من اختراق خط الحصار الأول، وخط الحصار الثاني، وأوقع بهما خسائر فادحة، ثم وهو يتأهب لاختراق الخط الثالث،

يستسلم منهم رجل واحد، وفضلوا جميعاً الموت في ساحة القتال، إن الإمبراطورية التركية ليست ملكاً لي، بل للشعب التركي، ولا أستطيع أن أتنازل عن أي جزء منها لأحد، فدع اليهود يحتفظون ببلايينهم، وإذا قُسمت إمبراطوريتي، فربما يحصل اليهود على فلسطين دون مقابل، ولن نسمح بتقسيمها إلا على جثتنا، فلا يمكن أن أوافق على تشريح أجسادنا ونحن أحياء But Only Our Corpse Will Be Divided,I Will Not Agree To Vivisection"(١).

وألح هرتزل على نيفلنسكي، أن يفعل ما بوسعه، ويتوسط له عند السلطان عبد الحميد، لكي يقبل أن يمثل أمامه ويحدثه بنفسه، فوافق السلطان عبد الحميد، على أن يحضر هرتزل كصديق، لا كصحفي، وبشرط أن يقوم هرتزل بتقديم خدمة للسلطان أولاً، وهي، كما يقول هرتزل:

أصابته قذيفة فقتلت فرسه وجرحت ساقه، فاضطر للاستسلام وتسليم بليفنا، وبلغ إجمالي خسائر الروس في حصار بليفنا حوالي ستين ألف قتيل، بينما استشهد من جيش الخلافة حوالي خمسة وثلاثين ألفاً، وفي ميدان المعركة صافح الدوق نيكولاي نيكولايفيتش، وكارول أمير رومانيا، عثمان باشا، وكان تعليق الجنرال ميخائيل سكوبيليف Mikhail Skobelev، قائد الجيش الروسي، على معارك بليفنا أن: "عثمان سيبقى هو المنتصر رغم استسلامه Osman The Victorious He Will Remain, In Spite Of His Surrender"، وكان القيصر ألكساندر الثاني قد حضر بنفسه بعد ضرب الحصار على بليفنا، ويقيم في قصر بين نيكوبول وبلفينا ويشرف منه على الحصار، فطلب أن يرى عثمان باشا، واستقبله في القصر وصافحه بحفاوة وهنأه على خطته في الدفاع عن بليفنا واستبسال قواته، ورد له سيفه، وقال له إنه يبيح له أن يحمله في بلاده، وأمر أن يعامل عثمان باشا كضيف لا كأسير، وأن يتولى أطباؤه علاجه، وبعد أسبوعين عاد عثمان باشا إلى الأستانة، فاستقبله أهلها استقبال الأبطال، واستقبله السلطان عبد الحميد ومنحه لقب الغازي، وهو أرفع لقب عسكري في الدولة العثمانية، ثم صار وزير الحربية العثماني، إلى أن توفى رحمه الله في ٥ أبريل سنة ١٩٠٠م، ودفن حسب وصيته في المقبرة السلطانية الملحقة بجامع السلطان محمد الفاتح. Wiliam Herbert: The Defence Of Plevna, Longmans, Green And Co., London, 1895.

1) Theodor Herzl: The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. I, P378, Edited by: Raphael Patai, Translated by: Harry Zohn, Herzl Press And Thomas Yoseloff, New York, London, Printed In The United States, 1960.

"أن أستخدم صِلاتي وصفتي كصحفي في التأثير على صحف لندن وباريس وبرلين وفيينا، لكي تتعامل مع المسألة الأرمنية بروح أكثر تعاطفاً مع الأتراك، وأن أقنع قادة الأرمن بطاعته To Submit To Him في مقابل أن يمنحهم بعض الامتيازات"(١).

ووافق هرتزل، وقال إنه سوف يرسل على الفور برقيات إلى صحف لندن وباريس، وطلب من نيفلنسكي أن يتم تعريفه بأوضاع الأرمن وقادتهم وصحفهم، لكي يبدأ مهمته، وأن يستقبله السلطان، لأن ذلك سوف يمنحه قوة ويسهل مهمته، فأخبره نيفلنسكي أن السلطان سوف يستقبله ويمنحه وساماً، ولكنه اشترط أن يكون ذلك بعد انتهاء المهمة وليس قبلها.

وبعد أن يأس هرتزل من لقاء السلطان عبد الحميد، طلب من نيفلنسكي، أن يمنحه السلطان على الأقل نيشاناً عالياً High Decoration، لكي يكون دليلاً لشعبه على منزلته عند السلطان، وفي النهاية رحل هرتزل عن الأستانة، يوم ٢٨ يونيو، دون أن يقابل السلطان، ودون أن يحصل على النيشان، وعلى متن القطار الذي يغادر الأستانة إلى صوفيا، قال نيفلنسكي لهرتزل إن:

"السلطان أخبرني أنه سيمنحك نيشاناً ... ويتوقع منك المساعدة في مسألة الأرمن، وبالإضافة إلى ذلك فإنه يأمل منك أن تتوسط في الحصول على قرض في مقابل امتياز باستغلال عائد المنارات Light Houses، ويقترح أن تكون قيمة التمويل مليوني جنيه"(٢).

وفي يوم ١٤ أكتوبر ١٨٩٦م، استقبل السفير العثماني في باريس، محمد نديم باشا، هرتزل، وأخبره أن السلطان عبد الحميد قد منحه نيشان المجيدية Mejidiye، من الطبقة الثالثة، مكافأة على خدمته، وفي يوم ٢٢ أكتوبر، سلم هرتزل إلى محمد نديم باشا رسالة شكر للسلطان، نصها:

"صاحب المعالي، محمد نديم باشا، كان عطوفاً، وتفضل بتسليمي النيشان الذي شرفتني جلالتكم ومنحتني إياه، وأعبر لكم عن عميق تقديري لما تفضلتم به عليّ، وأتوسل إلى

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. I, P387.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. I, P400,401.

جلالتكم أن تستمر في إسباغ عطفكم على اليهود، وفي اليوم الذي توافق فيه جلالتكم أن تتقبل خدمات اليهود، فسوف يضعون بسعادة جميع قواهم تحت تصرف مملكتكم المجيدة Will Joyfully Place Their Forces At The Disposal Of Such A Magnanimous Monarch، وأكرر لكم عميق توقيري لجلالتكم، أنا خادمكم المطيع تيودور هرتزل"(١).

وفي شهر أغسطس ١٨٩٧م، انعقد المؤتمر الصهيوني الأول، وكان مقرراً أن يُعقد المؤتمر في ميونيخ، ولكن في فبراير سنة ١٨٩٧م، وصلت أنباء التحضير لعقد المؤتمر إلى فلسطين فسرت الحماسة بين اليهود فيها، وأرسل دكتور أربيلا Arbela، مدير مستشفى روتشيلد في القدس رسالة، إلى هرتزل، يخبره فيها أنه:

"لا حديث لليهود في فلسطين إلا عن مشروعنا القومي Our National Plan"، ثم زارت مجموعة من الصهاينة البريطان لفلسطين، وعلى رأسهم إسرائيل زنجويلIsrael Zangwill، وانتشرت أنباء المؤتمر في الصحف، ودعم بريطانيا والولايات المتحدة له، فخاطب متصرف القدس إبراهيم حقي باشا قنصل ألمانيا في القدس، وفي الوقت نفسه أرسل إلى الباب العالي، وتلا ذلك نقل المؤتمر من ميونيخ إلى بازل/بال Basel في سويسرا"(٢)، (٣).

وانعقد المؤتمر في بازل/بال لمدة ثلاثة أيام، من ٢٩ إلى ٣١ أغسطس، وحضره مائتان من قادة اليهود وممثلوهم في جميع بلدان العالم، برئاسة هرتزل، وتمخض المؤتمر عن إقرار برنامج بال للحركة الصهيونية، وإنشاء المنظمة الصهيونية، لتقوم على تنفيذ هذا البرنامج، وأن يكون المؤتمر الصهيوني هو السلطة العليا في المنظمة، وانتخاب هرتزل رئيساً للمنظمة والمؤتمر، وماكس نوردو نائباً له، واتخاذ شعار للمؤتمر والمنظمة، وهو الذي صار بعد ذلك علم الدولة العبرية، وأول من صمم هذا العلم واستخدمه، سابقين هرتزل والحركة الصهيونية، مجموعة زالمان لافونتين، إذ جعلته راية لمستوطنة ريشون لتسيون التي أقاموها بتمويل من إدموند روتشيلد.

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P485.
2) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, P318.
3) The Arabs And Zionism Before World War I, P11.

وهدف الصهيونية، كما نص عليها المؤتمر، هو:

"تكوين وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين To Create For The Jewish People A Home In Palestine، تضمنه القوانين الدولية"[١].

وأما برنامج بال، الذي وضعته الحركة الصهيونية، لتحقيق هذا الهدف، فهو:

"١- تشجيع عمال الزراعة والصناعة والتجار اليهود على الاستيطان في فلسطين، مع توفير الظروف المناسبة لذلك، ٢- تنظيم جميع اليهود وربطهم معاً، بواسطة منظمات محلية ودولية مناسبة، بالتوافق مع قوانين كل بلد، ٣- بعث الهوية القومية اليهودية، وتقوية الشعور القومي اليهودي Strengthening And Fostering Of Jewish National Sentiment And Consciousness، ٤-اتخاذ خطوات تمهيدية نحو الحصول على موافقة الحكومات، إذا كان ذلك ضرورياً لتحقيق هدف الصهيونية"[٢].

وهذا هو تعليق هرتزل في يومياته على المؤتمر الصهيوني الأول وما أسفر عنه:

"إذا كنت سألخص مؤتمر بازل في كلمة، والتي لا يمكنني أن أصرح بها للعلن، فهي أنني في بازل قد أنشأت الدولة اليهودية At Basel I Founded The Jewish State، ولو قلت ذلك الآن بصوت عالٍ، لأجابني جميع من في الأرض بالضحك، وربما بعد خمس سنوات، ويقيناً بعد خمسين سنة، سوف يصبح ذلك واقعاً يراه كل أحد، إن إنشاء الدولة يكمن في إرادة الشعب للدولة، نعم، بل وفي إرادة مجموعة من الأفراد يملكون قوة كافية، أما الأراضي فليست سوى الأساس المادي Only The Material Bases، وإذا وُجدت هذه الأراضي دون فكرة الدولة فلا قيمة لها"[٣].

وعبارات هرتزل، تعرفك بأمرين، الأول أن الدولة، أي دولة، مشروع عقائدي وذهني ونفسي، فإذا لم توجد أذهان ونفوس تؤمن بأفكار وعقائد وتريد أن تترجمها في هذه الدولة وتصنعها بها،

---

1) The History Of Zionism, Vol. I, P268.
2) The History Of Zionism, Vol. I, P268-269.
3) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P381.

فلن توجد، وأن الحكم على الدولة، أي دولة، ليس فقط بالأبنية والمؤسسات والسياسات والجيوش، بل بالعقيدة والأفكار التي تكونت بها وقامت عليها الأبنية والمؤسسات، وتسري في السياسات، والرسالة التي تحملها الجيوش وتحدد الولاءات والعداوات.

والأمر الثاني الذي يعرفك به كلام هرتزل، هو الفرق بين اليهود وساسة بلاليص ستان ونخبها، فاليهود يعتقدون أن فلسطين أرضهم المقدسة، وأنه كانت لهم دولة فيها، ودليلهم الوحيد على ذلك كتابهم المقدس، وأنهم أُخرجوا منها، ثم تفرقوا في البلدان وتبعثروا بين الأمم، لمئات السنين وآلافها، ورغم ذلك لم تخرج عقيدة أن فلسطين أرضهم ودولتهم من أذهانهم ونفوسهم، وظلوا يكافحون في كل المجتمعات التي نزلوا فيها، وبكل الوسائل، من أجل الحفاظ على هذه العقيدة وتوريثها جيلاً بعد جيل، والعمل من أجل ترسيخها في أذهان غيرهم من الأمم، وترجمتها في الأحداث، ودفع التاريخ نحوها خطوة خطوة، آملين أن يأتي اليوم الذي يعودون فيه إلى أرضهم ويستعيدوا دولتهم.

فقارن رسوخ عقيدة اليهود وعدم يأسهم ومثابرتهم عبر القرون، ببلاليص بلاليص ستان الذين محوا رابطة الإسلام بين شعوب الشرق، وفككوا دولته، ومزقوها إلى مِزق لا وزن لها، وجعلوها تابعة للإمبراطوريات الماسونية، فحولتها وحولتهم إلى أدوات لإتمام المشروع اليهودي، ثم بعد أن كانوا مطايا لهذه الإمبراطوريات سراً، صاروا في أيامك يتفاخرون بذلك علناً، ولم يمض على إضاعتهم لفلسطين نصف قرن، حتى خرجوا يبشرون في شعوبهم بأن فلسطين لم تعد قضية، والقدس مسألة هامشية.

والصورتان وجهان لعملة واحدة أخبرك بها الإله في وحيه وبيانه، فالوجه الأول هو علو بني إسرائيل في الأرض الكبير واستيطانهم لأذهان جميع الأمم، الذي يواكبه وصول دورة الإفساد اليهودي الثانية إلى بلاليص ستان وصناعتها وصناعة ساستها ونخبها بها وبآثارها، وهو الوجه الثاني.

وبعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول:

"أخذ عبد الحميد ما تفعله الحركة الصهيونية بجدية تامة، فأصدرت الحكومة العثمانية قرارات بتجديد إجراءاتها لمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، والتشديد في تنفيذها، وأرسل عبد الحميد أحد أمناء قصر يلدز One Of His Palace Secretaries، متصرفاً على القدس، بدلاً من متصرفها الذي كان من رجال الإدارة، وأرسل إلى البعثات العثمانية في واشنطن ولندن وباريس وفيينا وبرلين، لمتابعة نشاط الحركة الصهيونية وتقديم تقارير عنها، ووضع مخصصات مالية مستقلة لذلك، وكان يقرأ التقارير بنفسه، وجعل السلطان المسألة اليهودية مسألة شخصية Personal Question، وأصبح كل ما يتعلق بالمسألة اليهودية، وبفلسطين خصوصاً، في يد السلطان ومن اختصاصات القصر السلطاني"[١]، [٢].

ومنع قائمقام يافا بالفعل بعض الأسر من اليهود البريطان من النزول في يافا وإكمال رحلتهم إلى القدس، وأعادهم عل متن السفينة التي قدموا عليها، لأنهم رفضوا التعهد بمغادرتها بعد ثلاثين يوماً، وأخرج متصرف القدس بعض الأسر اليهودية التي قدمت بالفعل وانتهت المدة المسموح لهم فيها بالإقامة، وبلغ من صرامة الأوامر العثمانية، أن قائمقام يافا منع نائب قنصل بريطانيا في أنطاكية والسويدية، من النزول ودخول فلسطين، وفي رسالة بتاريخ ٢٥ أغسطس ١٨٩٨م، عن الواقعة، مرسلة من قنصل بريطانيا في القدس جون ديكسون John Dickson، إلى القائم بأعمال السفير البريطاني في الأستانة، السير موريس دي بونزن Maurice De Bunsen، وهو حفيد البارون بونزن، بطل إنشاء الأسقفية البروتستانتية في القدس، يخبره أنه:

"بخصوص البرقية التي أرسلتها إليكم بالأمس، أتشرف أن أخبركم أن متصرف القدس أرسل لي رسالة مع سكرتيره، يقول فيها إن الصدر الأعظم أرسل إليه تعليمات بتشديد الإجراءات الخاصة بدخول اليهود إلى القدس، وأنها تسري على جميع اليهود الأجانب دون تمييز بين جنسياتهم، ومن ثَم فإنها سوف تطبق على اليهود البريطان، ولن يُسمح لأي يهودي أجنبي بدخول أرض فلسطين إلا بعد دفع ضمان مالي، وتعهده بمغادرة فلسطين خلال ثلاثين يوماً،

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, P319.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P12.

وقد تلقيت مكاتبة في يوم ١٨ الجاري، من وكيل القنصلية في يافا، المستر أمزلاك، وفيها أن السلطات في يافا منعت المستر جوزيف دويك Joseph Douek، نائب القنصل البريطاني في أنطاكية والسويداء، الذي جاء لزيارة أورشليم/القدس، من النزول، لأنه يهودي"[١].

ورسالة القنصل البريطاني ديكسون، لا تخبرك فقط بالإجراءات العثمانية لمنع دخول اليهود إلى فلسطين، بل وتعرفك أيضاً أن اليهود كانوا يكمنون في قنصليات بريطانيا في فلسطين والشام، ويديرون شؤونها مختبئين خلف القناصل البريطان، فنائب قنصل بريطانيا في يافا هو اليهودي أمزلاك، ونائب قنصلها في أنطاكية اليهودي دويك، وهلم جرا.

وإليك هذه الرسالة التي أرسلها السفير بونزن، إلى القنصل ديكسون، في اليوم نفسه، ٢٥ أغسطس، تعرفك بالطريقة التي ابتكرتها بريطانيا للالتفاف حول القوانين العثمانية، وشراء أراضي فلسطين لصالح اليهود، ولن تحتاج إلى أن ننبهك أن مشروع الدولة اليهودية، لم يكن سوى مشروع يهودي بريطاني مشترك.

"بخصوص استفساركم عن تسجيل الأراضي والممتلكات لصالح الرابطة الإنجليزية اليهودية Anglo Jewish Association، أخبركم أنني اقترحت على معالي وزير الخارجية في حكومة صاحبة الجلالة، الأخذ بنصيحة الرابطة الإنجليزية اليهودية، بوضع أسماء بعض الأشخاص من غير اليهود Some Persons Not Jews، الذين لا يمكن للحكومة العثمانية أن تعترض على شرائهم للأراضي والممتلكات"[٢].

أما ما ينبغي أن ننبهك إليه، فهو أن ذاك الزمان الذي صارت فيه بريطانيا الحليف الرئيسي للحركة الصهيونية، وتواطأت مع اليهود، لكي تسهل لهم دخول فلسطين والاستيلاء على أراضيها، وإقامة مستوطنات فيها، وكان قناصلها مجرد غلاف لليهود، هو نفسه الزمان الذي احتلت فيه بريطانيا مصر، وهو نفسه الزمان الذي توغل فيه أسطول شركة الهند الشرقية

1) The British Consulate In Jerusalem In Relation To The Jews of Palestine, 1838–1914,Vol. II, P519.
2) The British Consulate In Jerusalem In Relation To The Jews of Palestine, 1838–1914,P518.

البريطانية في الخليج، وحوَّل مشيخاته وجزره إلى محميات بريطانية، وهو نفسه الزمان الذي كان فيه بعض بلاليص بلاليص ستان، في غرب جزيرة العرب وفي شرقها يرفعون راية أن الدولة العثمانية احتلال تركي للعرب، وتحالفوا مع بريطانيا من أجل إخراجها من الشرق.

وهذه الأحداث التي يراها الأميون في بلاليص ستان مختلفة ولا علاقة بينها، ويفهمون كل حدث منها بمعزل عن الآخر، ومن عَبَطهم يُمجدون بعضها ويحتفلون به، هذه الأحداث كلها لم تكن سوى خيوط في شبكة واحدة، وعناصر متزامنة في المشروع اليهودي، وما كان له أن يسير ولا أن يكتمل إلا بها جميعاً معاً، فبريطانيا وهي تتواطأ مع اليهود وتمهد فلسطين لهم، احتلت مصر سنة ١٨٨٢م، ووضعت أصول دولتها وكونت مؤسساتها بالعقيدة الوطنية القومية، عقيدة الأرض والدم التوراتية البني إسرائيلية، وكونت فيها نخباً ضالة في كل المجالات، وهم الذين يسمونهم رواد النهضة، وحولتها إلى جناح للمشروع اليهودي في فلسطين، بل وتمركزت فيها الحركة الصهيونية، ومنذ احتلال بريطانيا لمصر وحتى إقامة الدولة اليهودية، وهي قاعدة النشاط الصهيوني في الشرق، كما ستعلم تفصيلاً، إذا أراد الله واكتملت هذه السلسلة من الكتب عن بلاليص ستان.

وفي الوقت نفسه احتلت أساطيل بريطانيا الخليج، وتحالفت مع البلاليص هنا وهناك في جزيرة العرب، لكي يكون شعار الاحتلال التركي لبلاد العرب، أداة للإطاحة بشرعية الدولة العثمانية في هذه البلاد، وهي كلها في الحقيقة بلاد الإسلام، والأَوْلى بحكمها هو الأقدر على ذلك، وعلى رد أعدائها عنها، ثم امتطت بريطانيا هؤلاء البلاليص لكي يقاتلوا الدولة العثمانية نيابة عنها وعن اليهود، ويكفوها عبء مواجهة قواتها في صحاري بلاد العرب الشاسعة، حتى إذا أخرج هؤلاء الأشاوس البلاليص قوات الدولة العثمانية من الخليج، ومن جزيرة العرب، ومن الشام، ووقعت فلسطين بين أنياب بريطانيا، سلمتها للعصابات الصهيونية، وتركت للبلاليص المِزَق التي أقامتها لهم وأقامتهم عليها وتحرسها وتحرسهم معها، لكي يحتفلوا ويؤلفوا الأغاني في مجدها واستقلالها.

وبين الثامن والعشرين والحادي والثلاثين من أغسطس ١٨٩٨م، انعقد المؤتمر الصهيوني الثاني، في بازل في سويسرا، بعد أن ازدهرت الحركة الصهيونية، في أعقاب المؤتمر الأول،

وزاد عدد أعضائها والجمعيات التابعة لها، وفي بريطانيا وحدها صار عدد الجمعيات والروابط التابعة للمنظمة الصهيونية، ستاً وعشرين جمعية ورابطة، وزاد عدد ممثلي اليهود الحاضرين في المؤتمر الثاني إلى أربعمائة، وكان الإنجليز أكثرهم نفوذاً، ومن ثَم، كما يقول المؤرخ الصهيوني ناحوم سوكولوف:

"كان في المؤتمر علامة مميزة، وهي التأثير الإنجليزي الذي لا شك فيه على المؤتمر، وفي الواقع النتيجة النهائية للمؤتمر الثاني في بازل، هي أن الصهيونية خطت خطوة فارقة نحو انجلترا Distinct Move Towards England، فالبنك في انجلترا، وكذلك لجنة الاستعمار Colonization Commission، وهذه النتيجة سببها موقع انجلترا السامي بين أمم أوروبا، ليس فقط لاستقرارها السياسي الذي لا شك فيه، بل وأيضاً بسبب موقعها الفريد من اليهود Its Unique Position Towards Jews"[١].

وهذه هي قرارات المؤتمر الثاني، التي أشار إليها سوكولوف:

"تأسيس بنك ليكون أداة تمويل المنظمة الصهيونية، وقد تم تأسيسه كشركة مساهمة في لندن، باسم: صندوق الاستعمار اليهودي Jewish Colonial Trust، برأس مال قدره مليونا جنيه إسترليني، وكان الفضل في تأسيسه لدافيد وولفنسون David Wolffsohn، تاجر من كولون، وياكوبس كان Jacobus Kann، صاحب بنك في لاهاي، وكان هرتزل يعارض بشدة فكرة التسلل التدريجي إلى فلسطين، واعتمد بدلاً منها السعي للحصول على مرسوم من السلطان عبد الحميد بإنشاء مستوطنة ذات حكم ذاتي Autonomous Settlement"[٢].

وفي أعقاب المؤتمر الثاني، علم هرتزل من صديقه فردريك دوق بادن Frederick Duke Of Baden، أن القيصر الألماني فيلهلم الثاني Welhelm II، سوف يذهب إلى الأستانة، للتفاوض مع السلطان عبد الحميد حول إنشاء خط سكة حديد برلين بغداد، وأنه سوف يزور

---

1) The History Of Zionism, Vol. II, Pxliii.
2) Short History Of Zionism, P49.

القدس، فقرر هرتزل انتهاز هذه الفرصة، وطلب وساطة القيصر عند السلطان عبد الحميد، وبوساطة السفير الألماني في فيينا، الكونت فيليب أولينبرج Philip Eulenburg، وافق القيصر على أن يستقبل هرتزل إبان رحلته إلى فلسطين.

وكونت المنظمة الصهيونية وفداً للقاء القيصر يرأسه هرتزل، ومعه دافيد وولفنسون، مؤسس البنك الصهيوني ورئيسه، وأستاذ القانون ماكس بودنهايمر Max Bodenheimer، والمهندس جوزيف شايدنر Joseph Seidener، رئيس المنظمة الصهيونية في ألمانيا، والدكتور موشيه شنَيْرر Moses Shnirer.

ووصل الوفد الصهيوني إلى الأستانة، يوم ١٨ أكتوبر ١٨٩٨م، بعد وصول القيصر بيوم واحد، وبترتيب من وزير خارجية ألمانيا، فون بولوف Von Bülow، وبالتعاون مع السفير الأمريكي في الأستانة، اليهودي أوسكار سولومون ستراوس Oscar Solomon Straus، استقبل القيصر فيلهلم الثاني هرتزل، في الساعة الخامسة والنصف مساء يوم ١٩ أكتوبر، في القصر الذي أنزله فيه السلطان عبد الحميد، فدار بينهما حوار طويل، في حضور بولوف، حول أوضاع اليهود ومعاناتهم، وعرَّف هرتزل القيصر بعمل الحركة الصهيونية على جذب اليهود وإبعادهم عن الحركات الثورية والاشتراكية، فأبدى القيصر إعجابه بالحركة ونشاطها، وفي نهاية الحوار:

"قال القيصر: أنا الآن الوحيد القريب من السلطان، اكتب خطاباً عن مطالبك وأعطه لبولوف، وسوف أقدمها للسلطان بعناية، ولكن أخبرني الآن في كلمة واحدة ما الذي تريدني أن أطلبه من السلطان، فأجبت: شركة قانونية تحت الحماية الألمانية Chartered Company Under German Protection"[1].

وكان هرتزل قد كتب فعلاً مسودة خطاب وعرضه على بولوف في اليوم السابق، وقد ضمنه مشروعه مفصلاً، على أن يلقيه أمام القيصر في القدس، ونصه:

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P734.

"مفوضاً من بني إسرائيل أتقدم للقيصر الألماني بأعمق آيات التبجيل، في البلاد التي كانت لآبائنا ولم تعد لنا، أجيال عديدة أتت وذهبت منذ أن كانت هذه الأرض يهودية، ولو تكلمنا عنها اليوم، فسوف تبدو وكأنها حلم بالأيام شديدة القدم، ولكن هذا الحلم ما زال حياً في قلوب مئات الآلاف من القلوب، وأفكار الصهيونية تنبعث من قلوبنا المضطهدة، وثمة شيء خالد في هذه الأفكار، والحركة الصهيونية هدفها حل المشكلة اليهودية بالوسائل المتاحة في هذا الزمان، وقبل كل شيء، فقد تمكنت من بعث هويتنا القومية بين إخوتنا المتناثرين في الأرض، وفي مؤتمر بازل وضعت الحركة برنامجاً وقدمته للعالم كله، وهو إنشاء وطن للشعب اليهودي تحت حماية القانون الدولي، وهذه أرض آبائنا وهي صالحة للاستعمار والزراعة، ونريد أن نجلب الازدهار لهذه البلاد بتوفير العمالة، ونطلب مساعدة جلالتكم في هذا المشروع، وصداقة جلالتكم بجلالة السلطان معروفة، ونأمل من جلالتكم أن تنقل رغبتنا لجلالته، ونحن نعتقد بأمانة أن المشروع الصهيوني سوف يجلب الرفاهية والازدهار لتركيا أيضاً، ومشروعنا هو إنشاء شركة يهودية للأراضي Jewish Land Company، في فلسطين وسوريا، ونطلب منكم أن تكون هذه الشركة تحت حماية القيصر الألماني"[1].

وقد التقى القيصر فيلهلم بالسلطان عبد الحميد، إبان زيارته للأستانة التي استمرت أسبوعاً، ثلاث مرات، إحداها كانت قبل لقائه بهرتزل، وفي اللقاء الثاني فاتح القيصر فيلهلم السلطان عبد الحميد في مشروع هرتزل لتنمية فلسطين، عن طريق تأسيس شركة يهودية لاستيطان الأراضي وزراعتها، بموافقة رسمية من الدولة العثمانية، وبضمان الإمبراطورية الألمانية، ولم يعلم هرتزل برد السلطان على القيصر في حينه، ونقلاً عن المصادر الألمانية، يقول المؤرخ اليهودي إشعيا فريدمان Isaiah Friedman، في كتابه: ألمانيا وتركيا والصهيونية Germany, Turkey And Zionism، إن

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P719-720.

"السلطان استقبل مقترحات القيصر عن مشروع شركة الأراضي بفتور شديد So Brusquely، وكان القيصر حريصاً على الاحتفاظ بعلاقته الودية مع السلطان، فلم يلح عليه، وغيَّر الموضوع"[1].

ورحل القيصر وحاشيته من الأستانة إلى فلسطين، يصاحبه وزير الخارجية العثماني توفيق باشا، ووصل إلى يافا يوم ٢٩ أكتوبر ١٨٩٨م، وكان الوفد الصهيوني قد سبقه إليها، بعد أن أخبر فون بولوف هرتزل أن القيصر سيستقبل الوفد في القدس، ودخل أعضاء الوفد الصهيوني من يافا متسللين، وهرتزل نفسه، كما يقول في يومياته، سافر من الأستانة إلى الإسكندرية، ومنها إلى يافا، ودخلها متسللاً بمساعدة حرس القنصلية الألمانية، فنزل من السفينة قبل الوصول إلى الشاطئ، وركب قارباً مع امرأة يهودية رومانية، وعند الرصيف البحري كان حرس القنصلية الألمانية في انتظاره، وأدخلوه بينهم إلى يافا[2].

وفي اليوم نفسه، استقبل هرتزل القيصر فيلهلم أمام بوابة مدرسة الزراعة اليهودية، مكفه إسرائيل، ومعه الحاخامات وتلاميذ المدرسة، وقد اصطفوا على الجانبين، وعند ظهور القيصر وموكبه:

"أعطى هرتزل إشارة للتلاميذ، فبدأوا في إنشاد نشيد بالألمانية، مطلعه: مرحباً بك يا حامل تاج النصر[•] Heil Dir In Siegenkrone"[3].

ولمح القيصر هرتزل، فتوجه نحوه بفرسه، ثم نزل أمامه ومد يده له مصافحاً، ودار بينهما الحوار التالي:

---

1) Isaiah Friedman: Germany, Turkey, And Zionism, 1897-1918, P77, Clarendon Press, 1977.

2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P739.

•) يا حامل تاج النصر Heil Dir In Siegenkrone: أغنية وضعها اثنان من الألمان، شوماخر Schumacher، وهاريس Harris، سنة ١٨٩٠م، ثم صارت نشيد الترحيب الإمبراطوري بالقيصر فيلهلم في ألمانيا.

3) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P743.

"القيصر: كيف حالك؟، هرتزل: شكراً لجلالتك، كنت ألقي نظرة على البلد، وهل جلالتك راض عن رحلتك إليها؟، القيصر: الجو حار جداً، لكن البلد لها مستقبل، هرتزل: إنها الآن مريضة، القيصر: ما تحتاجه هو الماء، كثير من الماء، هرتزل: نعم جلالتك، الري على نطاق واسع، فكرر القيصر: إنها أرض المستقبل Land Of The Future، يقول هرتزل: وربما قال أشياء أخرى، لكني لا أذكرها، لأنه لم يتوقف معي سوى بضع دقائق، ثم مد يده لي مرة أخرى، وركب فرسه"[١].

وفي يوم ٢ نوفمبر ١٨٩٨م، استقبل القيصر فيلهلم الثاني الوفد الصهيوني كاملاً، في الخيمة الإمبراطورية التي أقيمت له في القدس، وألقى هرتزل أمامه الخطاب الذي يحوي مشروعه، والذي كان قد سلم نسخة منه لوزير الخارجية فون بولوف، وكان رد القيصر على خطاب هرتزل، كما يقول في يومياته:

"أشكرك على تواصلك معي، الذي أثار اهتمامي كثيراً، وعلى كل حال المسألة ما زالت تحتاج إلى دراسة دقيقة ونقاشات أخرى، ثم مضى في ملاحظات حول الاستيطان والزراعة وصعوباتها وأشياء أخرى لا أتذكرها، لخمس أو ست دقائق، ثم أخذ بيدي وجرني للدخول في حوار مع بولوف قائلاً: بولوف، أنت تعرف هرتزل، أليس كذلك؟ ... وبعد أن خرجنا ومضينا بعيداً قلت لشنَيْرر: "لم يقل نعم، ولم يقل لا، ويبدو أن أشياء كثيرة تحدث خلف الستار Behind The Scenes"[٢].

وإليك ما تعرف منه، ما هو خلف الستار، ولماذا ترك القيصر فيلهلم الثاني هرتزل ومشروعه الصهيوني، وفضل أن يحافظ على صلاته الودية مع الدولة العثمانية والسلطان عبد الحميد الثاني.

بعد أن انتهى القيصر فيلهلم من زيارة القدس، اتجه إلى بيروت، ومنها إلى دمشق، فزار معالمها، ومنها المسجد الأموي، وضريح صلاح الدين الأيوبي، وأمر بوضع إكليل من الزهور

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P743.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. II, P755-757.

عليه، وكان شديد الإعجاب بصلاح الدين، وبعد المأدبة الفاخرة التي أقيمت له في دار البلدية، ألقى القيصر خطبة بالألمانية، وترجمها بعد إلقائه لها صادق بك، أحد أعضاء لجنة الضيافة المخصصة للقيصر، ونشرها الصحفي والمؤرخ اللبناني إبراهيم بن نجم بن إلياس بن حنا الأسود، وكان معاصراً للزيارة ومتابعاً لها، في كتابه: الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، الذي نشره في نفس سنة الزيارة، فهاك نصها:

"من الواجبات إبداء الشكر باسمي واسم حضرة الإمبراطورة، فكما إنني متلذذ بهذا الشعور العميق من الامتنان لهذه المراسم الاحتفالية الشائقة الفائقة، كذلك أراني مبتهجاً من صميم فؤادي عندما أفتكر بأنني في مدينة عاش بها مَن كان أعظم أبطال الملوك الغابرة بأسرها، الشهم الذي تعالى صدره بتعليمه أعداءه كيف تكون، ألا وهو المجاهد الباسل السلطان صلاح الدين الأيوبي، منتهزاً هذه الفرصة لأن أُبين قبل كل شيء بسرور لا مزيد عليه تشكراتي لحضرة ذي الشوكة السلطان عبد الحميد خان، الذي أفتخر بخالص محبته وجميل معاملته، وليوقن صاحب الشوكة السلطان عبد الحميد خان الثاني، والثلاثمائة مليون من المسلمين المرتبطين بمقام خلافته العظمى ارتباطا قوياً، والمنتشرين في جميع أنحاء الكرة الأرضية، أن إمبراطور ألمانيا سيبقى محباً لهم إلى الأبد"[1].

وكما ترى، السر في موقف القيصر فيلهلم الثاني، وانصرافه عن الحركة الصهيونية ومشروعها، أنه لا يريد أن يخسر المسلمين، وهم مئات الملايين، ومن المحيط إلى المحيط، ومن أواسط أوروبا إلى أواسط آسيا وإفريقيا، أمة واحدة، وبلادهم التي تمتد متواصلة في ثلاث قارات دولة واحدة، مرجعيتها واحدة، وقضاياها وسياستها واحدة، والذي يتعدى على جزء منها فهو يعتدي عليها كلها، ويجد نفسه في مواجهتها جميعاً معاً، والسلطان بهذه الأمة الواحدة والدولة الموحدة صاحب شوكة، لا يمكن لدولة في العالم، ولا للعالم كله، أن يعقد أمراً أو يتخذ موقفاً دون حساب حسابه، والسلطان في الوقت نفسه قوَّام على هذه الأمة والدولة، ويدافع عنها بمواقفه

١) المؤرخ اللبناني إبراهيم بن نجم بن إلياس بن حنا الأسود: الرحلة الإمبراطورية في الممالك العثمانية، وهو يحتوي على ما نظمه بعض الشعراء الأدباء في مديح الإمبراطور غليوم الثاني، ص١٨٠-١٨١، المطبعة العثمانية، بعبدا، لبنان، ١٨٩٨م.

وسياساته، ومن أجلها يوالي ويعادي، دون أن يعنيه أن يقف مرتدياً لباس البطولة أمام الكاميرات، ودون أن يثبط من همته أو يجعله يتراجع عن مواقفه، ما يشيعه عنه أعداؤه وأعداء الأمة والدولة، وما يصمونه به في الصحف ووسائل الإعلام التي يسيطرون عليها، حتى لو أفضى ذلك إلى أن يضحي بعرشه ويتنازل عن إمبراطوريته.

فقارن موقف السلطان عبد الحميد، وكل ما أتيناك به من سياساته ومواقفه من اليهود والحركة الصهيونية، كان مجهولاً في زمنه عند عموم المسلمين، ولا يعلمون عنه شيئاً، قارنه بالبلاليص في المِزَق التي صنعتها لهم الإمبراطوريات الماسونية، وأقامتهم عليها وتحرسها لهم، يبيعون دولهم وشعوبهم وأراضيها ومقدساتها في ما يتفقون عليه ويوقعونه مع الإمبراطوريات الماسونية في الغرف المغلقة التي لا يراهم فيها ولا يعرف ما الذي فعلوه فيها أحد، وكل ما يعنيهم ويحرصون عليه، أن يخرجوا على شعوبهم أمام كاميرات الصحف والشاشات، وقد رفعوا رؤوسهم ونفخوا صدورهم، وإعلامهم يتغنى ببطولتهم وأمجادهم، وما يتغنون به ليس سوى رضا الغرب عنهم، وموافقته أن يقبلهم عملاء له في الشرق، وأن يعاونوه بالمِزق التي أقامهم عليها في إتمام المشروع اليهودي، فيضع السياسات لهم ولدولهم، دون حساب حسابهم، بل ودون علمهم، ثم يبلغهم بها السفراء والقناصل، وكل بطولتهم ومجدهم في تنفيذها والأمانة في تطبيقها.

وفي ١٥ أغسطس ١٨٩٩م، انعقد المؤتمر الصهيوني الثالث في بازل في سويسرا، وإبان التحضير للمؤتمر، وقبل أن يبدأ أعماله بيومين، في ١٣ أغسطس، أرسل هرتزل من بازل، برقية إلى السلطان عبد الحميد، ووجهها إلى معالي منير باشا، رئيس التشريفات والمراسم في قصر يلدز، لكي يسلمها للسلطان، ونصها:

"**الصهاينة المجتمعون في مؤتمر في بازل، يرون أن واجبهم الأول، أن يضعوا عند أعتاب عرش جلالة السلطان تعهدهم بتفانيهم وتوقيرهم لجلالته، وإقرارهم بعطف جلالته الذي يبديه دائماً تجاه رعاياه اليهود، ويرغب الصهاينة في إغاثة إخوتهم التعساء في مختلف بلاد أوروبا، وأن يسهموا في مجد الإمبراطورية العثمانية وازدهارها، وهم يأملون بإخلاص، أن**

تحظى هذه الرغبات بترحيب الخليفة ذي الحكمة السامية Exalted Caliph Wisdome"[1].

ولم يرسل السلطان، ولا أحد من طرفه، رداً على برقية هرتزل.

وأما المؤتمر الصهيوني الثالث، فكان نشاطه الرئيسي:

"عرض هرتزل على المؤتمر البرقية التي أرسلها إلى السلطان عبد الحميد، وتم الاتفاق على تركيز الجهود للحصول على مرسوم رسمي من السلطان، واستعرض المؤتمر نتائج الجهود السابقة، وكانت: زيادة عدد الجمعيات الصهيونية في روسيا بنسبة٣٠%، وفي غيرها من البلدان بنسبة ٢٥%، وزيادة عدد أعضاء المنظمة من المنتظمين في دفع الشيكل، رسم الاشتراك، إلى مائة ألف عضو، وهو ما يعني أن عدد المنخرطين في النشاط الصهيوني يقارب ربع مليون يهودي، وتم الاتفاق على وضع مخطط جديد للمنظمة، من أجل تنظيم البناء الداخلي لها، وعرض وولفنسون إجراءات إنشاء البنك وطرح أسهمه، واشترط أن يظل تحت سيطرة المنظمة الصهيونية، حتى لو كان أغلب المساهمين من غيرهم، واقترح ديفيز تريتش Davis Trietsch استعمار قبرص، ورفضت الغالبية العظمى من أعضاء المؤتمر حتى طرح الموضوع للنقاش"[2].

وبين السادس عشر والتاسع عشر من شهر أغسطس ١٩٠٠م، انعقد المؤتمر الصهيوني الرابع في قاعة الملكة Queen's Hall، في قصر لانجهام Langham، في وسط لندن، وكانت المرة الأولى التي يخرج فيها المؤتمر الصهيوني من بازل في سويسرا، وكان اختيار لندن، كما يقول ناحوم سوكولوف:

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P860.
2) Richard Gottheil: Zionism, The Jewish Encyclopedia, Vol. XII, P676.

"من أجل زيادة التأثير على الرأي العام البريطاني، حيث لم يستقبل الرأي العام في أي بلد الدعاية الصهيونية بمثل التفهم والتعاطف الذين وجدتهم في بريطانيا، خصوصاً بعد إنشاء الاتحاد الصهيوني الإنجليزي English Zionist Federation"(١).

وهو ما أكده هرتزل في خطابه في المؤتمر:

"أشعر أنه ليس من الضروري أن أشير إلى أسباب عقد المؤتمر في لندن، فانجلترا هي إحدى الأماكن الأخيرة في الأرض الخالية من كراهية اليهود، وهي البقعة الوحيدة في العالم الواسع التي لا يتعرض فيها شعب الإله العتيق للاضطهاد، وفي هذه الأرض المجيدة يحظى اليهود بالحرية وحقوق الإنسان كاملة Full Freedom And Complete Human Rights، ولكن سيكون صديقاً سيئاً لليهود في انجلترا، وكذلك لليهود في البلدان الأخرى، مَن ينصح اليهود المضطهدين بالفرار إلى هنا، فهذه الهجرة سوف تكون كارثة لليهود في انجلترا، كما هي كارثة لليهود القادمين إليها"(٢).

وبين المؤتمر الصهيوني الثالث والمؤتمر الرابع، كان الباب العالي قد شدد الإجراءات التي تمنع دخول اليهود إلى فلسطين إلا للحج، وصدر الجواز الأحمر الذي قيد حركتهم داخلها، وفي ٢٧ يناير ١٩٠١م، أرسل السفير البريطاني في الأستانة، السير نيكولاس أوكونور Nicholas O"Conor، رسالة إلى وزير الخارجية الماركيز لانسداون Lansdowne، عن تشديد الإجراءات العثمانية بخصوص دخول اليهود إلى فلسطين، وأرفق مع رسالته، صورة من التعليمات العثمانية المفصلة الصادرة لوالي بيروت ومتصرف القدس، وقد أرسلها إليه قناصل بريطانيا في بيروت والقدس، ونشرها المؤرخ اليهودي البريطاني ألبرت ونتفيوري هيامسون، في كتابه: القنصلية البريطانية في أورشليم/القدس وعلاقتها باليهود في فلسطين، فهاك هي:

"١- جميع اليهود الذين يزورون فلسطين، سواء قدموا إليها من الخارج، أو من مناطق عثمانية أخرى، يجب أن يحملوا تذكرة Tezkere، أو جواز سفر Passport، موضحاً به

1) History Of Zionism, Vol. II, P xHv.
2) History Of Zionism, Vol. II, P xHv.

جنسيتهم ومهنتهم والغرض من الزيارة، ٢- عند وصول هؤلاء اليهود إلى أي ميناء في ولاية بيروت أو متصرفية القدس، عليهم أن يقدموا التذكرة أو الجواز إلى المسؤولين الرسميين في الميناء، ويدفعوا قرشاً واحداً، ليحصلوا على تذكرة إقامة مؤقتة، تسمح لهم بالإقامة والتنقل في فلسطين لمدة ثلاثة أشهر، ولكي يمكن تمييز هذه التذكرة، فسوف يكون لها لون وشكل يختلفان عن التذاكر الأخرى المعتادة، وعلى حاملها أن يبرزها للسلطات عند طلب رؤيتها، وكل من يتجاوز فترة الأشهر الثلاثة، فسوف يتم طرده من فلسطين، عن طريق البوليس، أو عن طريق القنصلية التابع لها، ٣-التواريخ وجميع التفاصيل الخاصة بهذه التذاكر المؤقتة سوف يتم تسجيلها شهرياً، وإرسالها إلى السلطات المحلية، وإلى البوليس، لكي يقوم بإخراج اليهود الذين انتهت مدة إقامتهم في فلسطين، وأي إهمال من المسؤولين المذكورين في تنفيذ هذه الإجراءات، سوف تقابله عقوبة شديدة Will Be Severly Punished"[1].

ورغم الإجراءات العثمانية المشددة، وخلافاً لاستراتيجية هرتزل القائمة على دخول فلسطين وشراء أراضيها بصورة رسمية، استمر اليهود والجمعيات اليهودية، خصوصاً من روسيا، في التسلل إلى فلسطين، عبر السفر إلى دول أوروبا الغربية، خصوصاً بريطانيا ومستعمراتها، والحصول على جوازات سفر منها، وقد غيروا فيها أسماءهم، وجوازات السفر البريطانية لم يكن بها خانة للديانة، وبعد ذلك السفر إلى فلسطين، وشراء الأراضي، بتمويل من أثرياء اليهود، وعلى رأسهم البارون إدموند روتشيلد، وبمعاونة القناصل، وعن طريق وضع غير اليهود من أهل فلسطين بين المشترين، وتسجيل الأرض باسمهم.

وإخراج اليهود الذين دخلوا فلسطين منها، لم يكن ممكناً بصورة كاملة من غير تعاون القناصل، وفي تقرير من قنصل بريطانيا في بيروت إلى السفير البريطاني في الأستانة، السير أوكونور، في ١٣ يناير ١٩٠١م، والذي أرفقه إلى وزير الخارجية، الماركيز لانسداون: أن:

"عدد اليهود الذين يدخلون البلاد قليل جداً، وفي السنوات الأخيرة لم يدخل رسمياً أي يهودي من بيروت، وكذلك الحال في حيفا، حيث لا يستطيع اليهود الدخول إلا بتواطؤ صغار

---

1) The British Consulate In Jerusalem In Relation To The Jews of Palestine, 1838–1914, Vol. II, P562.

المسؤولين Connivane Of Minor Officials، وأنا أعرف أن خمسة جنيهات كافية لأن تؤمن دخول يهودي واحد من بيروت أو حيفا، أياً كانت جنسيته، ومعظم اليهود الذين يصلون إلى هنا من النمسا وروسيا وأمريكا، وقناصل هذه البلاد لا يوافقون على منع رعاياهم من دخول فلسطين، وفي حالة قنصل النمسا فإنه لا يساعد السلطات المحلية في إخراج اليهود بعد انتهاء مدة إقامتهم المسموح بها، وكذلك قنصل روسيا، رغم أنهما يميزان اليهود من غيرهم، لأن جوازات سفر النمسا وروسيا تحوي خانة للديانة، كما أن قنصل روسيا يعرف اليهود من الشكل اليهودي لأسمائهم، وقنصل الولايات المتحدة احتج في مرات عديدة على منع المواطنين الأمريكيين من الدخول، وأرسل رسائل بذلك إلى الباب العالي، واليهود من جميع الجنسيات يتجنبون تصعيد المشكلة، وفي أغلب الأحوال يقومون بحلها عن طريق دفع مبلغ من المال لصغار المسؤولين، لكي يتواطؤوا معهم، ويسمحوا لهم بالدخول، وبخصوص اليهود البريطان، فأرجو من معاليكم أن تضعوا في اعتباركم، أن جوازات السفر البريطانية، بخلاف جوازات السفر الأخرى، ليس فيها ما يشير إلى ديانة حاملها، وبعد تشديد الإجراءات العثمانية، سوف يواجه القناصل البريطان صعوبات كبيرة ومشاكل عديدة، لأنهم لا يعرفون بصورة رسمية إن كان حامل جواز السفر يهودياً أو غير يهودي، وفي الوقت نفسه لن يسمحوا للسلطات العثمانية بطرد رعايا بريطانيا"[١].

"........................"

السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل:

ونعود بك إلى هرتزل واستراتيجيته للاستيلاء على فلسطين بصورة قانونية ورسمية، عبر لقاء السلطان عبد الحميد وإغرائه بحل مشاكل الدولة العثمانية المالية وتسديد ديونها، فبعد المؤتمر الصهيوني الرابع الذي عُقد في لندن، قرر هرتزل الاستعانة بالساسة البريطان، وأخبره الاتحاد الصهيوني الإنجليزي، أنه حصل على موافقة ستين مرشحاً لعضوية البرلمان على المشروع

1) The British Consulate In Jerusalem In Relation To The Jews of Palestine, 1838–1914, Vol. II, P563.

الصهيوني، وأن نصف هؤلاء تم انتخابهم فعلاً وصاروا أعضاء في البرلمان، ولكن هرتزل غير رأيه، بسبب كراهية السلطان عبد الحميد الشديدة للإنجليز، وقرر السير في اتجاهات أخرى.

ويقول المؤرخ اليهودي الصهيوني إسرائيل كوهين، في كتابه: تيودور هرتزل مؤسس الصهيونية السياسية Theodor Herzl, Founder Of Political Zionism، إن:

"هرتزل اجتمع في شهر أكتوبر ١٩٠٠م مرتين، في فيينا، برئيس الحكومة النمساوية، إرنست فون كوربر Ernest Von Koerber، وعرض عليه دعم الحكومة عبر حملة صحفية، في مقابل مساعدته في مشروعه، وأخبره كوربر أن الحكومة تواجه مشاكل مالية، وتحتاج إلى تمويل، وطلب مساعدته في ذلك، وفكر هرتزل أنه يسعى للاستقلال فغير رأيه"(•)،(١).

والعامل الحاسم في تغيير هرتزل لرأيه، أنه إبان مفاوضاته مع فون كروبر، تلقى في يوم ١٥ أكتوبر ١٩٠٠م، برقية من كرسبي Crespi، رجل نوري بك Nuri Bey، ونوري بك أرمني، وكان أحد الوكلاء في نظارة الخارجية العثمانية، ويعمل في القصر السلطاني، وصار صديقاً لهرتزل منذ زيارته الأولى للأستانة سنة ١٨٩٦م، وفي الرسالة أن:

"الحكومة في حاجة ملحة إلى سبعمائة ألف أو ثمانمائة ألف جنيه، وسوف تعطي عوائد الجمارك Customs Revenues كضمان، مع فائدة ٦%، وإذا نجحت هذه المهمة فسوف يستقبلك جلالة السلطان"(٢).

وكانت برقية هرتزل التي رد بها على برقية نوري بك:

"يمكنك أن تقول أننا سنقدم العرض المطلوب بسبعمائة ألف جنيه، في مقابل الضمان المذكور، بشرط أن أتمكن من التفاوض مباشرة مع جلالة السلطان، وحينئذ سيتم العمل في

•) كان كوربر رئيس حكومة الجزء النمساوي من الإمبراطورية الهنجارية النمساوية، وهرتزل فكر أنه يريد منه أن يوفر له التمويل، ويساعده في الاستقلال بالنمسا عن الإمبراطورية.

1) Israel Cohen: Theodor Herzl, Founder Of Political Zionism, P231.

2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P985.

وقت قصير، ولكن أرجو أن تتلطف وتلاحظ أنني لن أفعل شيئاً إلا إذا دُعيت من قِبَل جلالته لتقديم عرضي إليه شخصياً Present My Offers To Him In Person"[١].

وفي يوم ٢٢ أكتوبر ١٩٠٠م أرسل كرسبي، برقية نصفها مشفر Half In Code، إلى هرتزل، يخبره فيها أنه يريد أن يأتي إلى فيينا لمقابلته، لكي يعرض عليه مقترحات مهمة، ويريد من هرتزل ان يتحمل نفقات سفره وإقامته، فرد عليه هرتزل بأنه سيعطيه ألف فرنك إذا كانت المقترحات مهمة فعلاً، وفي ٣٠ أكتوبر أرسل إليه كرسبي برقية أخرى، يقول له فيها إنه إذا وضع في الحساب مائتي ألف جنيه عثماني/ليرة، كمقدمة لقرض بسبعمائة ألف جنيه، بفائدة ٦%، فإنه سيضع قبل رمضان مقترحاً عند أعتاب العرش السلطاني بدعوته إلى القصر، فرد عليه هرتزل بأنه سيضع المائتي ألف جنيه في الحساب خلال أسبوع من استقباله في قصر يلدز.

وأرسل هرتزل إلى وولفنسون، مدير البنك الصهيوني في لندن، لكي يأتيه في فيينا، وأخبره أنه يستعد للسفر إلى الأستانة، وطلب منه أن يذهب برسالة منه إلى اليهودي الهولندي ياكوبس كان Jacobus Kann، أحد الشركاء في بنك ليزا وكان Lissa And Kann، في لاهاي، لكي يقوم بالاشتراك مع بنوك اليهود الأخرى في هولندا، بتدبير قرض قيمته سبعمائة ألف جنيه للحكومة العثمانية بفائدة ٦%، على أن يتم إيداع مائتي ألف جنيه في حسابها فور أن يعطيهم هرتزل الإشارة بذلك[٢].

وهنا، ولعدم ثقة هرتزل بكرسبي، وشكه في قدرة نوري بك على وضع مقترحاته أمام السلطان عبد الحميد، قرر هرتزل الاستعانة بأرمينيوس فامبيري Arminius Vámbéry، وهو يهودي مجري، يعمل أستاذاً للدراسات الشرقية والتركية في جامعة بست Pest، وقام برحلات عديدة في أنحاء الدولة العثمانية، وكان يتردد على السلطان عبد الحميد، والسلطان كان يقربه ويستقبله في أي وقت، ويتخذه مصدراً للمعلومات، ويوظفه للدعاية في أوروبا، ولنقل أخبار بريطانيا وساستها،

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P985-986.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P987-988.

رغم علمه أنه يتجسس أيضاً لحساب بريطانيا، وهذا هو وصف هرتزل في يومياته لفامبيري، عند لقائه به لأول مرة، في ١٧ يونيو ١٩٠٠م:

"قابلت في فيينا أحد أكثر الأشخاص إثارة، وهو رجل أعرج، ويهودي عجوز من هنجاريا/المجر، في السبعين من عمره، ويؤلف كتباً بالألمانية، ويتكلم اثنتي عشرة لغة بنفس المقدرة، واعتنق خمس ديانات Professed Five Religions، وعمل في اثنتين منها كرجل دين Priest، ورغم معرفته الواسعة بديانات عديدة فهو ملحد Atheist، وقد أخبرني بحكايات عديدة عن الشرق، وعن صِلاته بالسلطان، وأخبرني بسر بعد أن جعلني أقسم ألا أفشيه، وهو أنه عميل سري Secret Agent للأتراك والإنجليز في وقت واحد، وقال لي: "أنا رجل ثري، ويمكنني أن آكل ذهباً، وثروتي ربع مليون، لا أستطيع إنفاق ربع فوائدها، وإذا كنت سأساعدك، فمن أجل القضية For The Sake Of The Cause، وليس من أجل المال"، وعلمت منه أن السلطان أرسله من أجل صناعة مناخ ودي له وللدولة في الصحف الأوروبية"[1].

وتنبه من وصف هرتزل لفامبيري، أن هوياته المتعددة والمتناقضة ليست سوى أغلفة، وأن هويته الحقيقية التي يخبئها خلف هذه الأغلفة، أنه يهودي، يؤمن بغاية اليهود، وهي قضيته التي يعمل في سبيلها، ويوظف هوياته الأخرى من أجلها.

وأرسل هرتزل إلى فامبيري في بست، أوائل شهر نوفمبر، فأخبره بالموضوع، وطلب منه أن يأتي معه إلى الأستانة، فرد عليه فامبيري، يوم ١٧ نوفمبر ١٩٠٠م، بأنه سوف يرسل إلى السلطان، يستفسر منه عن موضوع القرض، وهل هو حقيقي، وفي يوم ٣ ديسمبر وصل كرسبي إلى فيينا، وأخبر هرتزل أن فامبيري فاتح السلطان في دعوته للأستانة، ونصحه ألا يتكلم عن الصهيونية مطلقاً إذا مثل أمام السلطان، فأرسل هرتزل برقية إلى فامبيري، في ٦ ديسمبر، يخبره فيها بتفاصيل القرض، وأنه ليس مسألة عمل Business، بل هو معروف Favour، يريد أن يقدمه لجلالة السلطان، لكي يعرف أصدقاءه الحقيقيين، ويتفهم مطالبه، ومن غير ذلك، فليس من المحتمل أن يسعى في توفير القرض، وفي ٤ يناير ١٩٠١م أرسل فامبيري إلى هرتزل، أنه

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P961-962.

التقى السلطان، وعرض عليه رغبته في المثول أمامه، ولكنه لا يريد أن يسمع شيئاً بخصوص فلسطين، وفي ١٧ يناير رد هرتزل على فامبيري بأن المهلة الممنوحة للتفاوض حول مشروع القرض انتهت، وبنك ليزا وكان سحب العرض الذي قدمه، ولكن إذا وافق السلطان على استقباله فسوف يدبر القرض من مؤسسات مالية أخرى أكبر وأقوى من بنك ليزا وكان.

وفي يوم ٨ مايو ١٩٠١م، يقول هرتزل:

"زرت فامبيري في شقته في فيينا، فأخبرني أنه أخيراً، وبعد ست لقاءات له مع السلطان، وافق السلطان على أن يستقبلني، ليس كصهيوني، بل كأحد رؤساء اليهود وصحفي مؤثر As Chief Of The Jews And An Influecial Journalist، ثم قال فامبيري: لا يجب أن تتكلم عن الصهيونية أمام السلطان، إنها أوهام Phamasmagoria، فأورشليم/القدس مقدسة عند هؤلاء الناس مثل مكة، وأنا أرغب في استمرار الصهيونية، ولذا سعيت في ترتيب هذه المقابلة، لأنه من غير ذلك لن يمكنك أن تواجه مؤتمرك، وإبراهيك بك، المسؤول الرسمي عن مراسم استقبال السفراء، سيكون المترجم بينك وبين السلطان، وأشعرني كلام فامبيري بقدر كبير من الرضا، فسوف أتمكن أخيراً من مقابلة السلطان والكلام معه لساعة على الأقل، ويمكنني حينئذ أن أحوز ثقته وأزيل شكوكه"[1].

وفي يوم ١٠ مايو، استقل هرتزل قطار الشرق السريع من فيينا، ووصل إلى الأستانة يوم ١٣ مايو، وفي يوم الجمعة ١٨ مايو ١٩٠١م، توجه هرتزل إلى قصر يلدز، فاستقبله ناظر الخارجية فؤاد باشا، وأمين القصر وسكرتير السلطان تحسين بك، وأثناء انتظاره في غرفة انتظار السفراء، جاءه إبراهيم بك وأخبره أن السلطان أنعم عليه بوسام المجيدية الأعظم Grand Cordon Of The Mejidiye، ثم أُدخل هرتزل إلى حضرة السلطان عبد الحميد الثاني، وكان هذا وصفه للقاء:

"كان السيد واقفاً أمامي، ومد لي يده ثم جلسنا، وظل إبراهيم بك واقفاً بيننا، وبدأ السلطان بالسلام، ثم أخبرني أنه يداوم على قراءة جريدة الصحافة الحرة الجديدة Neue Freie

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1092-1093.

Presse (التي يحرر هرتزل قسمها الأدبي)، وأنه يعلم منها أخبار الترنسفال والصين وغيرها من البلدان، وشكرته على الوسام الرفيع، ثم حدثني عن العلاقات الودية بين بلدينا، قاصداً بذلك تركيا والنمسا، ولم أرد أن يطول الكلام في هذا الموضوع، فقلت له إنني جئت لأشكره على معاملته الطيبة لليهود، وأن اليهود في العالم كله ممتنون لذلك، وأنني تحديداً مستعد لتقديم أي خدمة يرغب فيها، وأكدت له أني لا أنوي نشر أي شيء مما يدور بيننا في هذه المقابلة، ولذا يمكن لجلالته أن يثق بي ويتكلم معي مطمئناً، فقال السلطان: "لقد كنت دائماً صديقاً لليهود، وفي الحقيقة أنا أعتمد على المسلمين واليهود، ولا أملك هذا القدر من الثقة بغيرهما من الرعايا"، وحينئذ أبديت له أسفي على المعاناة التي يتعرض لها اليهود في كل مكان من العالم، فقال إن إمبراطوريته كانت دائماً مفتوحة للاجئين اليهود وملاذاً لهم، وهنا قلت: "عندما أخبرني البروفسور فامبيري أن جلالته سيستقبلني تذكرت القصة الجميلة القديمة عن أندروكليس والأسد(•) Androcles And The Lion، وجلالته الأسد، وربما أكون أنا أندروكليس، وربما تكون ثمة شوكة Thorn تحتاج إلى من يزيلها"، وابتسم السلطان، فقلت له: هل يمكن أن أواصل الكلام بصراحة ووضوح؟ فقال: هذا ما أريده، فقلت: الشوكة كما أراها هي دَيْن الدولة العام Public Debt، وإذا أزيلت فسوف تستعيد الدولة ثقتها وعافيتها، فابتسم السلطان وقال إن هذه الشوكة انغرست في عهد المغفور لهم أسلافه، وأنه منذ بداية عهده وهو يكافح من أجل إزالتها، وإذا أمكنني أن أساعد في ذلك، فسوف يكون لطفاً كبيراً، فقلت: أعتقد أنه يمكنني ذلك، ولكن الشرط الأول والأساسي هو السرية المطلقة Absolute Secrecy، فرفع السيد حاجبيه ووضع يده على صدره وهو يهمس: "سر، سر"، فقلت له سبب إصراري: "القوى الكبرى تريد تركيا ضعيفة، وألا تتعافى، ولذا سوف تفعل كل ما في وسعها لإفشال الموضوع"، فتفهَّم ذلك، فأكملت: "يمكنني أن أفعل ذلك من خلال أصدقائي في البنوك والبورصات في أوروبا كلها، إذا حظيت بدعم جلالته، وطلبي حين يأتي أوان هذا

(•) أندروكليس والأسد: قصة للأديب الإغريقي إيسوب Aesop، الذي بدأ حياته كرقيق، عن عبد هرب من سيده، وكان أحد قادة الجيش، ولجأ إلى غابة، فوجد فيها أسداً يتألم من شوكة كبيرة انغرست في كتفه، فاستجمع أندروكليس شجاعته واقترب من الأسد، ونزع الشوكة، فخفف الألم عن الأسد وتمسح فيه، وبعد فترة ألقي القبض على أندروكليس، وعوقب بأن وضع في حلبة وأطلق عليه أسد، فكان هو الأسد الذي نزع منه الشوكة، وعرفه الأسد، وبدلاً من أن يهجم عليه، اقترب منه في هدوء وتمسح فيه.

الدعم، أن يكون في صورة إجراءات ودية تتعلق باليهود، وأن يتم إعلانها بطريقة مناسبة، وسوف تعمل قوى اليهود النشطة لصالح الإمبراطورية العثمانية"، فهز السلطان رأسه موافقاً على ما قلته، فأكملت: "كل ما تحتاجه هذه البلاد الجميلة، هو مهارات شعبنا في الصناعة، والأوروبيون عندما يأتون إلى هنا، يجنون الأرباح ويكونون الثروات، ثم يندفعون بأنانية عائدين إلى أوروبا، وأصحاب المشروعات يجب قطعاً أن يربحوا، ولكن بعد ذلك ينبغي أن يظلوا في البلد التي كونوا فيها ثرواتهم"، فهز السلطان رأسه موافقاً مرة أخرى، وقال: "ما زال في البلاد ثروات لم تُستغل"، ثم حدثت مفاجأة، طلب مني السيد، عبر إبراهيم، ان أرشح له أحد رجال المال المقتدرين، لكي يقوم بخلق موارد مالية جديدة للدولة، فقلت إن ثقة جلالته بي تضع عليَّ مسؤولية كبيرة، وسوف أهتم بالمسألة، وفور أن أصل إلى الرجل المناسب، فسوف أخبر جلالته به، فقال إن هذا الرجل سوف يعين في منصب رسمي في وزارة المالية، وبعد ذلك وجه السيد حديثه نحو مشروع توحيد الدَين العام، فسألته ما الذي يعنيه ذلك، ففسره وهو يبتسم ابتسامة حزينة، بأن يتم توقيع عقد بقرض جديد موحد، وطويل الأجل، بدلاً من عقود الديون القديمة، وهو ما يوفر مليون ونصف مليون جنيه، لسد العجز في الميزانية، فطلبت أن أعرف خطة جلالته كاملة، وتفاصيل مشروع توحيد الديون، لكي أقرر هل يمكنني الإسهام في ذلك أم لا، وعرضت على جلالته مشروعات أخرى، مثل عقد لاحتكار توليد الطاقة الكهربية، وبناء جسر جديد في اسطنبول، لكنه لم يُعرها اهتماماً، وقال إن الشيء الوحيد الذي يشغله هو إزالة الدَين العام، وشعرت بالإرهاق، إذ استغرق هذا الحوار أكثر من ساعتين، وكنت أفكر في طريقة لتوجيه الحوار في الاتجاه الذي أريده، لكي أحصل على تصريح لصالح اليهود يكون عن طريقي، وكان المؤتمر الصهيوني في ذهني، ولكن في النهاية لم أطلب من السيد سوى أن يتم إعداد ورقة مفصلة عن الأوضاع المالية ومشروع توحيد الديون، ثم نهض السيد وخطا بضع خطوات نحو الباب، وانسحبت أنا وإبراهيم، ونسيت أن أقول إنه في أثناء الحوار نهضت واقفاً من مقعدي وانحنيت أمام السيد، حين وصف نفسه بأنه صديق لليهود ووعد بحمايتهم إذا جاءوا لاجئين إلى الإمبراطورية"[١].

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1112-1117.

وفي اليوم التالي، ١٩ مايو ١٩٠١م، ذهب هرتزل إلى قصر يلدز، وهو يأمل في مقابلة ثانية مع السلطان، لكي يفاتحه في موضوع السماح باستيطان اللاجئين اليهود في فلسطين، فاستقبله إبراهيم بك في مكتبه، ومعه عزت بك، من سكرتارية السلطان، فعرض عليه عزت بك خطة توحيد الديون المقترحة من جانبهم، وبعد انتظار طويل، أخبره إبراهيم بك أن السلطان مشغول، ولن يمكنه مقابلته، وفي يوم ٢٠ مايو، عاد هرتزل إلى القصر مرة أخرى، ومعه وولفنسون، ليقابل السلطان، فأخبره إبراهيم بك أن السلطان لن يقابله، وأنه فوضه في التباحث معه، ومعرفة مقترحاته حول مشروع توحيد الديون، فأملى هرتزل خطته شفوياً، وإبراهيم بك يدون ما يقوله، وكانت خطة هرتزل من ثلاث أجزاء:

"١- جزء سلبي Negative Part: أ- خطة عزت بك غير عملية، بل ربما تكون ضارة، ب- جميع القروض غير مستحبة في الوقت الحاضر، لأنه مع وضع تركيا الحالي، لن يمكنها الحصول على قروض إلا بشروط مجحفة وفوائد ربوية عالية.

٢-جزء إيجابي Positive Part: أ-شراء الدَين في البورصات بسرية تامة، بواسطة مؤسسة موثوق بها، وفي أفضل الأحوال يحتاج إتمام ذلك إلى ثلاث سنوات، ب- إبان ذلك يجب اتخاذ إجراءات وخطوات حاسمة لتوفير مليون ونصف مليون جنيه، لسد العجز، بحلول أول شهر أكتوبر من هذه السنة، ج- في الوقت نفسه يجب البحث عن موارد جديدة.

٣- جزء منطقي General Rationale: نحن اليهود نحتاج إلى حماية في العالم، ونحب أن يكون هذا الحامي في كامل قوته"[1].

وجاء عزت بك من عند السلطان، ودار بينه وبين هرتزل حوار طويل، أخبره عزت بك في نهايته، أنهم يحتاجون بصورة ملحة إلى أربعة ملايين جنيه، وسأله إن كان في استطاعته توفيرها، فرد عليه هرتزل بأنه يعتقد أن هذا ممكن، ولكن لابد أن يستشير أصدقاءه أولاً، وأن:

"كل شيء يتوقف على موقف جلالته تجاهنا، نحن اليهود Toward Us, Jews"[1].

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1130.

فقال له عزت بك بالفرنسية، باسم السلطان:

"يمكن للإسرائيليين أن يأتوا إلى هنا، لكن يجب أن يوافقوا على أن يكونوا رعايا عثمانيين، وعلى سيل المثال، الذين سيشتركون في شراء الدين العام، لابد أن يصبحوا رعايا لجلالته، وكذلك الذين سيأتون كمستعمرين، يجب ليس فقط أن يصبحوا رعايا عثمانيين، بل وأن يتنازلوا عن ولاءاتهم السابقة Renounce Their Previous Allegiance، وأن يكون هذا التنازل موثقاً بواسطة حكوماتهم، وأضاف إبراهيم بك: وأن يقوموا بأداء الخدمة العسكرية، عندما يطلب منهم جلالته ذلك، وأكمل عزت: فإذا قبل الإسرائيليون هذه الشروط يمكن أن نسمح لهم بالدخول إلى أي منطقة، وشيء آخر، الاستعمار يجب أن لا يكون بجماعات كبيرة، ويمكننا أن نقول خمس أسر هنا وخمس أسر هناك، وأن يكونوا متناثرين دون اتصال بينهم Scattered Without Connection، فقلت في نفسي (هرتزل) وأنا أحاول أن أرسم على وجهي علامات الرضا والموافقة: "لكي تنهبوهم وتذبحوهم بسهولة"(٢).

وكان رد هرتزل:

"قلت لعزت وإبراهيم: "في العام الماضي، كما تعلمون، تكرم جلالته، وسمح للاجئين اليهود المطرودين من رومانيا أن ينزلوا في الأناضول، ومع امتناننا الشديد لهذا الكرم، فأنا ما زلت لا أحبذ المستوطنات المتناثرة، ولا أشجع هذه الهجرة العشوائية، وما ينبغي فعله هو إنشاء شركة كبيرة للأراضي، تقوم بزراعة الأرض في المناطق غير المستصلحة، وتجعلها قابلة للاستيطان، وبالتأكيد توجد في فلسطين أراضٍ كافية لهذا الغرض، فإذا مُنحت شركة الأراضي، التي ستكون عثمانية بلا شك، الصلاحيات اللازمة، فإنها ستجعل الأرض صالحة للزراعة، وتوطن الناس، وتدفع الضرائب، ومع الدخل المتوقع لهذه الشركة يمكن أن توفر أموالاً للقروض، وبذلك تفتح موارد جديدة للدولة"، يقول هرتزل: وبهذه الطريقة غير المباشرة قدمت إلى ممثلي السلطان عرض الحصول على مرسوم شركة الأراضي لأول مرة، وسوف يكون الوقت كافياً لمتابعة المسألة في المفاوضات القادمة، وسوف يتكفل الذهب باكتساح جميع

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1133.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1134-1135.

المعارضين، واختفى عزت ليخبر جلالة السلطان بما قلته، ثم عاد وقال: جلالته يريدك أن تكتب مقترحاتك وتقدمها خلال شهر"[١].

وبين السادس والعشرين والثلاثين من ديسمبر ١٩٠١م، انعقد المؤتمر الصهيوني الخامس في بازل، في سويسرا، وفي افتتاح المؤتمر ألقى هرتزل خطاباً قال فيه:

"لقد التقيت السلطان عبد الحميد في شهر مايو الماضي، ومن موقف جلالته وكلماته، اقتنعت أن الشعب اليهودي له صديق يرعاه، هو حامل لقب الخليفة Reigning Caliph، وقد صرح لي السلطان أن أعلن ذلك"[٢].

وفي اليوم الثاني من المؤتمر:

"وصلت برقية ودية من السلطان، يُعرب فيها عن شكره Acknowledgment على الكلمات التي قالها هرتزل في افتتاح المؤتمر، وتنفس هرتزل براحة كبيرة، وصار قادراً على إكمال جلسات المؤتمر بروح عالية وآمال عريضة"[٣].

وأهم قرارات المؤتمر الصهيوني الخامس كانت:

"إعادة انتخاب هرتزل رئيساً للمؤتمر، وعقد المؤتمر كل عامين، بدلاً من عقده سنوياً، وظهر لأول مرة الفرع الصهيوني الديمقراطي Democratic Zionist Fraction، وهو حزب كونه في روسيا شباب الصهاينة من تلاميذ أحد هاعام، ومن أبرز قادته حاييم وايزمان Chaim Weizmann (رئيس المنظمة الصهيونية لاحقاً وأول رئيس لإسرائيل)، واقترح وايزمان إنشاء مدرسة يهودية عليا/كلية Jewish Hoch Schule في فلسطين، وأهم نتائج المؤتمر قرار تأسيس صندوق قومي يهودي Jewish National Fund، للحصول على الأراضي في فلسطين بصورة جماعية، وجعلها ملكاً عاماً للشعب اليهودي"[٤].

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1135-1136.
2) Theodor Herzl, Founder Of Political Zionism, P253.
3) Theodor Herzl, Founder Of Political Zionism, P253.
4) Theodor Herzl, Founder Of Political Zionism, P254-255.

وفي يوم ١١ فبراير ١٩٠٢م، كما يقول هرتزل في يومياته:

"جاءتني أخبار سارة، فقد كتب لي فامبيري يخبرني أن خط سكك حديد الحجاز سوف يدخل في التفاوض حول القرض، وأن إبراهيم بك أخبره أن جلالة السلطان يدعوني لإتمام المسائل التي بينناSummons Has Been Issued In The Interest Of Our Affairs، وبالأمس أيضاً أرسل إبراهيم إليَّ برقية ألا أتأخر"[١].

وقدِم هرتزل إلى الأستانة، وكتب في يوم ١٦ فبراير رسالة بمقترحاته، وفيها رجاء للسلطان أن يسبغ حمايته على اليهود في العالم كله، كما يسبغها على اليهود من رعاياه، وأن يسمح لهم بالاستيطان في الإمبراطورية، عن طريق إنشاء شركة عثمانية يهودية Ottoman Jewish Company، للاستعمار وللتعدين واستثمار مناجم المعادن المختلفة في الإمبراطورية، في مقابل تقديم قرض طويل الأجل، لتوحيد الديون القديمة وسد العجز في الميزانية، مع رجاء الحفاظ على السرية، لأن لقاءه السابق مع السلطان وصل نبأه وتفاصيل ما فيه للصحف الأوروبية[٢].

وذهب هرتزل بمقترحاته إلى قصر يلدز وطلب مقابلة السلطان، فلم يقابله، فسلم الرسالة لعزت بك، وانتظر رد السلطان عليه، فجاءه عزت بك بالرد، وكان:

"السلطان يرغب في فتح الإمبراطورية لجميع اليهود، الذين يَقدمون كرعايا عثمانيين، لكن المناطق التي يستوطنونها سوف تحددها الحكومة، وتُصدر بها قراراً كل فترة من الزمن، ويستثنى من ذلك فلسطين Palestine Is To Be Excluded، فيُسمح للمهاجرين اليهود باستعمار ما بين النهرين وسوريا والأناضول، وأي مكان آخر، والاستثناء الوحيد هو فلسطين، فقلت: مرسوم بدون فلسطين، ورفضت على الفور"[٣].

وفي يوم ١٩ فبراير، قرر هرتزل أن يغادر الأستانة، لكنه كتب رسالة للسلطان عبد الحميد، وذهب بها إلى قصر يلدز، وهو يرجوا أن يوافق السلطان على مقابلته، وفيها:

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1211.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1220-1221.
3) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1222.

"أنا شديد الأسف، لأنني لم أتمكن من خدمة جلالتك، وفي الظروف الحالية أنا أجهز نفسي للرحيل، ولم اجد إلا شيئاً واحداً ربما يزيل الصعوبات التي أواجهها، وهو حكمتكم السامية، وأنا أخضع لكم وأقبل حكمكم، إذا وافق جلالتكم على منحنا الاستعمار بلا قيود Colonization Without Restriction، فيمكنني أن أُقنع أصدقائي بتأسيس بنك تركي كبير، مقره الرئيسي في القسطنطينية/الأستانة، وله فروع في جميع المدن الكبرى في الإمبراطورية، وهذا البنك الذي سيتكون مجلس إدارته من المسلمين واليهود فقط سوف يقوم بتنظيم مالية البلدان العثمانية، ولذا سيكون قدوم اليهود ميزة ونصيب من الحظ A Piece Of Luck للدولة كلها، وإذا لم توافق جلالتك على هذا المقترح، فأرجو أن تسمح لي بالرحيل غداً صباحاً، وسوف أكون في غاية السعادة إذا وافقتم على منحي شرف المثول أمامكم اليوم للتعبير عن ودي وامتناني للحفاوة التي حظيت بها، وإذا لم يكن لدى جلالتكم وقت، فأريد أن أقول إنني إذا لم أستطع حل المسألة اليوم، فربما أجد لها حلاً لاحقاً، وأرجو أن تتذكروا دائماً خادمكم المطيع"(١).

وجاء عزت بك برد شفوي من السلطان عبد الحميد على مقترحات هرتزل بإنشاء بنك عثماني وتنظيم مالية الدولة، في مقابل السماح باستيطان اليهود دون قيود، وكان رد السلطان:

"جلالته لا يمكن أن يسمح بهجرة غير محددة Unlimited Immigration، حتى لو أراد ذلك، لأنه سوف يخسر بذلك شعبه، ليس فقط الأغلبية، بل وأيضاً الأقليات، ومن الخطأ الاعتقاد أن السلطان يمكنه أن يفعل كل ما يحلو له"(٢).

والسلطان الذي يحكم بلاد الإسلام في ثلاث قارات، وهو خليفة النبي على أمته من المحيط إلى المحيط، مقيد بالإسلام وثوابته وتاريخه ومقدساته وأمته، ولا يستطيع، كما أخبرك السلطان عبد الحميد، أن يفعل كل ما يحلو له، لكن البلاليص في المِزَق التي صنعتها لهم الإمبراطوريات الماسونية وأقامتهم عليها، والذين يتغنى إعلامهم بالديمقراطية ودولة الدستور والقانون، كما ترى في زمانك، يستطيعون، والموظفون وحفظة الأكلشيهات ومشايخ البلاط يخبرونك أنه من حقهم.

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1223-1224.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1225.

وحاول هرتزل إغراء السلطان عبد الحميد بطريقة أخرى، فأرسل من فيينا، في يوم ٣ مايو ١٩٠٢م، رسالة إلى إبراهيم بك ليسلمها للسلطان، ونصها:

"لي الشرف أن أقدم لحكمة جلالتك السامية المقترح التالي: أرى أن الحكومة تواجه صعوبات، بسبب مشكلة الشباب الأتراك الذين يسافرون إلى الخارج من أجل إتمام تعليمهم العالي، فيتأثرون بالنماذج السيئة، وتغريهم الأفكار الثورية Revolutionary Ideas، والمعضلة أنه يجب الاختيار بين عدم إكمال تدريبهم العلمي، ومخاطر الاضطرابات السياسية، ولكن توجد طريقة لحل هذه المعضلة، فنحن اليهود نلعب دوراً بارزاً في الحياة الجامعية في العالم كله، ويوجد عدد كبير من اليهود في الجامعات في كل البلدان، ومن هؤلاء أساتذة وخبراء عظام في مجالات التعليم المختلفة، ويمكن أن ننشئ جامعة يهودية Jewish University، في إمبراطورية جلالتك، على سبيل المثال في أورشليم/القدس، ومن ثَم لا توجد حاجة لإرسال الطلاب العثمانيين إلى الخارج، ويتمون تعليمهم وتدريبهم العلمي داخل البلاد، وسوف تجذب الجامعة اليهودية الأساتذة والخبراء من أفضل الجامعات ومعاهد التقنية ومعاهد الزراعة، ولن اتكلم في تفاصيل هذا المشروع إلا إذا وافق جلالتكم عليه، التوقيع: من خادم جلالتكم الخاضع المطيع تيودور هرتزل"[١].

وفي يوم ١٢ مايو وصل إلى هرتزل في فيينا الرد على مشروع الجامعة اليهودية من الأستانة:

"رسالتك التي تطلب فيها إنشاء جامعة إسرائيلية في القدس، وُضعت عند أعتاب العرش السلطاني، وولاء اليهود الإسرائيليين لجلالة السلطان، وتعاطفهم مع إمبراطوريته، حقيقة لا جدال فيها Incontestable Truth، ولكن الحكومة العثمانية مشغولة في الوقت الحالي بمشروعات عديدة، من أجل تحسين الوضع المالي للخزانة، وتوفير موارد جديدة"[٢].

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. IV, P1274-1275.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. IV, P1278.

وقد أفرد هرتزل خمس صفحات كاملة في يومياته للسلطان عبد الحميد، كتبها يوم ٢١ مايو ١٩٠١م، وهو يغادر الأستانة على متن السفينة برنسبيسا ماريا Principessa Maria، بعد المرة الوحيدة التي قابل فيها السلطان عبد الحميد، وملأها بسبِ السلطان والسخرية من شكله وملامحه ولحيته وهيئة جسمه وصوته وملابسه وطريقة حكمه، ووصفه بأوصاف متناقضة، منها أنه طاغية ومستبد، وأنه في الوقت نفسه ضعيف وجبان، وأنه داهية وفي الوقت نفسه نصف مجنون Half Demented، وقال إنه يفكر في تأليف مسرحية عن السلطان عنوانها: السيد The Master.

وكان قد طلب من وولفنسون، رئيس البنك الصهيوني، أن يوفر له خمسين ألف فرنك، أخذها وهو ذاهب إلى قصر يلدز، ليوزعها على الموظفين وأعضاء سكرتارية السلطان، باسم أنها هدية وعنوان للصداقة، فالذين قبلوا هديته، مثل عزت بك، وصفهم بأنهم فاسدون ومرتشون، والذين لم يقبلوها، مثل تحسين بك، وصفهم بأنهم متعصبون ومتزمتون، وقد حاول هرتزل جاهداً استمالة تحسين بك السكرتير الأول للسلطان عبد الحميد، وأقرب رجال القصر إليه، وعرض عليه هدية عشرة آلاف فرنك، فرفض تحسين بك قبولها تحت أي مسمى، ورد عليه بغلظة، ورفض بعدها مقابلته، ولذا كان تحسين بك أكثر شخص يكرهه هرتزل في القصر بعد السلطان عبد الحميد.

وأكثر ما أثار حفيظة هرتزل على السلطان عبد الحميد، كما يقول هو:

"جازفت بوضعي The Situation Was Made Hazardous، لأنني أُجبرت على تقديم نفسي، ليس بشخصيتي الحقيقية التي يعرفها العالم كله، كقائد للصهاينة ورئيس للمؤتمر الصهيوني، بل كمحرر في صحيفة الصحافة الحرة الجديدة"(١).

وأما استقبال السلطان عبد الحميد لهرتزل ومفاوضاته معه وموقفه منه، فإليك المؤرخ الأمريكي وأستاذ التاريخ في جامعة هارفارد، نيفيل ماندل، يخبرك بتفسيره:

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1126.

"لقد تصنع عبد الحميد الاهتمام بكلام هرتزل، وخُدِع هرتزل بدماثة عبد الحميد وتصنعه Had Been Deceived By Abdiilhamid's Affability And Histrionics، وبعد عدة أشهر أخرى من المذكرات والمراسلات، تجاهل ممثلو السلطان موضوع توحيد الديون، ودُعي هرتزل إلى القسطنطينية/الأستانة مرتين، في فبراير ويوليو ١٩٠٢م، دون أن يقابل عبد الحميد، ودون أن يكون ثمة شيء جديد في كلام ممثلي السلطان معه، وفي السنة نفسها وافق عبد الحميد على مشروع لتوحيد الديون قدمته مجموعة فرنسية، فأدرك هرتزل بأسف أن عبد الحميد هو الذي هَنْدَس زياراته إلى القصر Abduilhamid Had Engineered His Visits To The Palace، وتعمد إشاعة تفاصيلها، رغم أنه طلب منه إبقاءها سراً، لكي يُغري المجموعة الفرنسية بمشروع توحيد الديون ويحصل منها على أفضل شروط ممكنة، ودَوَّن هرتزل في يومياته بعد لقائه بعبد الحميد وهو مسرور أنه حصل على كل شيء، ثم اكتشف بعد عدة أشهر أن عبد الحميد هو في الحقيقة الذي أكله Herzl Who Had, In Fact, Been Taken In"!![١]،[٢].

وهذا هو وصف هرتزل نفسه لما فعله السلطان عبد الحميد به، وما انتابه من مشاعر:

"فيينا، في ١٤ مارس ١٩٠٢م، قرأت في عدد الأمس من جريدة الصحافة الحرة الجديدة خبرين جديدين، وكانا يعنيان لي الكثير، ١- أول أمس عقد السلطان مأدبة عشاء على شرف كونستانز Constans، ثم استقبله في مقابلة خاصة، وهو نفسه كونستانز الذي عمِل لحسابه في مسألة قرض لوراندو تيوبيني Lorando Tubini، ٢- وافق السلطان على مشروع روفييه Rouvier project، لتوحيد الديون، ويبدو لي أنه توجد صلة بين الخبرين، وأخيراً استفاد السلطان من وجودي، فقد كنتُ أنا اليهودي الذي أرسل إليه لكي يحرك المنافسين الآخرين ويجعلهم أكثر مرونة، وقد فعلها، وتحطم كل شيء Everything Has Gone To Smash، وعزائي الوحيد أن الأتراك وقعوا بين أيدي الفرنسيين المحتالين"[٣].

---

1) Ottoman Policy And Restrictions On Jewish Settlement In Palestine: 1881-1908, Middle Eastern Studies, Vol. 10, No. 3, October 1974, P319-320.
2) The Arabs And Zionism Before World War I, P12-13.
3) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. III, P1256.

وحاول هرتزل تدارك الأمر، فأرسل رسالة إلى الأستانة، يقول فيها إنه قادر على توفير المال اللازم للقرض وتوحيد الديون، وأنه سوف يتنازل عن بعض شروطه، فأرسل إليه الصدر الأعظم سعيد باشا رسالة عن طريق السفير العثماني في لندن، يوم ١١ يوليو ١٩٠٢م، يدعوه للحضور للأستانة، فوصلها، يوم ٢٥ يوليو، وفي صحبته وولفنسون، وجاءه تحسين بك مرحباً به، على غير العادة، وأخبره أنه ضيف السلطان، وطلب منه كتابة مذكرة بمقترحاته لتقديمها لجلالته، فأعد هرتزل المذكرة، وفيها:

"أول شرط لأصدقائي في الترتيبات الجديدة، الرفض الواضح والقاطع لخطة روفييه، وحينئذ سوف يقدمون عرضاً لا يمكن منافسته من الآخرين، ويتعهد أصدقائي بتقديم ٣٠ مليون جنيه ويمكن أن تصل إلى ٣٢ مليون جنيه، للحكومة العثمانية، عبر شراء سندات تصدرها، في مقابل أن تصدر الحكومة العثمانية مرسوماً أو امتيازاً بإقامة مستعمرات يهودية فيما بين النهرين Mesopotamia، كما تلطف جلالته في شهر فبراير الماضي، بالإضافة إلى بعض المناطق في حيفا وأطراف فلسطين"[١].

وفي يوم ٢٧ يوليو ١٩٠٢م، دعا الصدر الأعظم سعيد باشا هرتزل إلى مأدبة غداء في قصر يلدز، للتباحث بشأن مذكرته ومقترحاته، وحضرها إبراهيم بك، وبعد المأدبة، اكتشف هرتزل أن الفرنسي روفييه موجود في الوقت نفسه مع السلطان!

يقول هرتزل:

"اكتشفت أنه في أثناء انتظاري، تم استخدام وجودي ومقترحاتي للضغط على روفييه، والحصول منه على شروط أفضل To Exact More Favorable Conditions"![٢].

وقد فهم بعض المؤرخين، ممن يلتقطون الأحداث والقرارات والأقوال، فيقطعونها من سياقها، ويفهمونها معزولة عن ظروفها وملابساتها، عرض السلطان عبد الحميد على هرتزل، في شهر فبراير ١٩٠٢م، أن يستوطن اليهود سوريا أو العراق أو الأناضول، على أنه تفريط منه لليهود

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. IV, P1315.
2) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. IV, P1319.

في سوريا والعراق، وبعضهم حاول تبرير عرض السلطان بأنه يريد إبعاد اليهود عن فلسطين، لأنه يعلم أنها المكان الوحيد الذي يرغبون فيه، والذي إذا اجتمعوا فيه فسيتحول وجودهم إلى مشروع سياسي ودولة.

واستقبال السلطان لهرتزل، ثم دعوته للأستانة أكثر من مرة، وحثه على كتابة مذكرات ومقترحات، ومفاوضات رجال السلطان معه بشأنها، وإغراء السلطان له بموافقته على استيطان اليهود في بعض مناطق الإمبراطورية، وتعمد السلطان تسريب أخبار زيارات هرتزل ومشاريعه لتوحيد ديون الدولة العثمانية، والرسالة التي أرسلها إلى المؤتمر الصهيوني الخامس، وهو يعلم أن صحف أوروبا كلها تتابعه وسوف تذيع نبأ رسالته، كل ذلك، كما ترى، وكما أخبرك نيفل ماندل وهرتزل نفسه، لم يكن مفاوضات ولا إجراءات حقيقية، بل مجرد استدراج لهرتزل ممثل البنوك اليهودية، من اجل اتخاذه طُعماً لاجتذاب أطراف أخرى لتوقيع عقد توحيد ديون الدولة، والضغط به عليهم للحصول على أفضل شروط للعقد، من أجل إزالة الشوكة المغروزة في جسم الدولة، وأكبر هَمٍّ كان السلطان يعاني منه.

والفترة التي استدعى فيها السلطان، عبر رجاله، هرتزل لزيارة الأستانة أكثر من مرة، وجعله يجيء ويذهب، وترك عزت بك وإبراهيم بك يتفاوضون معه ظاهرياً حول مشروع توحيد الديون، وما سوف يمنحونه إياه في مقابله، ويسربون أخبار ذلك إلى الصحف، تقع بين شهر أكتوبر ١٩٠٠م وشهر يوليو ١٩٠١م، وهي نفسها الفترة التي كان السلطان يتفاوض فيها تفاوضاً حقيقياً مع المجموعة الفرنسية حول المشروع نفسه، ويحاول أن يحصل منهم على أفضل شروط، سراً ودون أن يعلم أحد شيئاً، ولم يصبح خبراً في الصحف إلا بعد الاتفاق وموافقة السلطان.

وما يزيدك يقيناً بذلك، أن السلطان عبد الحميد كان قد أصدر فرماناً في ١٩ أكتوبر ١٨٩١م، بغلق الإمبراطورية كلها، وليس فلسطين فقط، أمام اليهود الأجانب من جميع الجنسيات بدعوى أنهم يهددون الصحة العامة، ولم يستثن من ذلك إلا القدوم للحج، ولفترة محددة، ولم يصدر عن السلطان ولا عن الحكومة العثمانية، إبان زيارات هرتزل للأستانة ومفاوضاته حول الديون، ولا بعدها، أي فرمان أو قرار بتعديل هذا الفرمان وفتح الإمبراطورية أمام اليهود، سوى استثناءات خاصة ومحدودة، وبإذن من السلطان نفسه، مثل سماحه لأسر من يهود رومانيا

بدخول الأناضول، بل وتم تأكيد القرارات الخاصة بدخول اليهود إلى فلسطين تحديداً ومنع شرائهم للأراضي فيها عدة مرات، آخرها كان في سنة ١٩٠٤م.

وفي رسالة من قنصل بريطانيا في القدس، جون ديكسون، إلى السفير البريطاني في الأستانة، أوكونور، في ١٢ يوليو ١٩٠٤م، أن:

"الحكومة العثمانية تصر على تنفيذ القوانين الخاصة بدخول اليهود ومنع بيع الأراضي، ويضع المسؤولون في فلسطين سلسلة من العراقيل Obstacles أمام الشركات اليهودية، ورفضت السلطات في يافا تسجيل شركة تجارية، لأن أصحابها يهود"[١].

وبعد إتمام عقد توحيد الديون مع مجموعة روفييه الفرنسية، لم يعد هرتزل له قيمة عند السلطان عبد الحميد، فخبت الاتصالات بين هرتزل والأستانة، ثم انقطعت.

وهرتزل نفسه، بعد زيارته الأخيرة للأستانة، في يوليو ١٩٠٢م، واكتشافه أن السلطان كان يستغفله طوال الوقت ويستخدمه طعماً لجذب البنوك والمؤسسات المالية غير اليهودية، أدرك أن المسألة انتهت، ولم يفكر في العودة إلى الأستانة، ولا في إرسال أي مقترحات جديدة، وأيقن بما قاله السلطان عبد الحميد لصديقه نيفلنسكي، إبان زيارته الأولى للأستانة، سنة ١٨٩٦م، وهو أنه لن يحصل على فلسطين إلا إذا مُزقت الدولة العثمانية أولاً.

وقد صرح هرتزل بذلك لملك إيطاليا فيتوريو إيمانويل الثالث Vittorio Emanuele III، إبان زيارته لروما في يناير ١٩٠٣م، بعد أن أخبره إهرنبريس Ehrenpreis، حاخام صوفيا عاصمة بلغاريا، أن بولاكو Polacco، الملحق الإيطالي في صوفيا، وهو يهودي، أخبره أن الملك مهتم بالحركة الصهيونية وأرسل يسأل عنها، فسافر هرتزل إلى روما، والتقى ملك إيطاليا في يوم ٢٣ يناير، ودار بينهما حوار طويل، حول مشروع هرتزل لاستيطان فلسطين، والسلطان عبد الحميد وكيف يمكن التأثير عليه، وأبدى الملك إعجابه بتعلق اليهود بالقدس وحبهم لها، ولكنه أخبر هرتزل أن مشروعه ليس ممكناً ولن يوافق عيه السلطان أبداً، فرد عليه هرتزل:

---

1) The Arabs And Zionism before World War I, P23.

"سيكون ممكناً عندما تُقسم تركيا/الدولة العثمانية، وسوف تقسم تركيا/الدولة العثمانية Partition Of Turkey Is Bound To Come"(١).

وما قاله هرتزل هو الذي كان، فهرتزل كتب كتابه: الدولة اليهودية، والحركة الصهيونية تكونت وانتشرت بين اليهود في أوروبا، خلال عهد السلطان عبد الحميد الثاني، وفي ظلال القوانين والإجراءات العثمانية التي تمنع دخول اليهود إلى فلسطين وتملكهم لأراضيها، وتقيد حركة من يدخلونها للحج بالجواز الأحمر.

وهرتزل نفسه، خطته واستراتيجيته، التي وضعها في المؤتمر الصهيوني الأول، والتزم بها هو والجيل الأول من الصهاينة، كانت برنامجاً سياسياً، هدفه ليس هجرة اليهود العشوائية إلى فلسطين وإقامة مستوطنات متفرقة فيها، بل الحصول عليها كاملة، وبصورة قانونية، وإقامة مستوطنات ومجتمعات يهودية منظمة، عبر التفاوض مع الدولة العثمانية، وإغرائها بتسديد ديونها وحل مشاكلها الاقتصادية، والتحالف مع القوى الأوروبية ودفعها للضغط على الدولة العثمانية، فهرتزل هو مؤسس الصهيونية السياسية Political Zionizm.

ولذا، كما يقول الصهيوني إسرائيل كوهين:

"كان هرتزل يعارض أي محاولة لإقامة مستعمرات في فلسطين قبل ضمان الحصول على مرسوم رسمي Before The Coveted Charter Was Secured ... وخلال الاثنتي عشرة سنة التي مرت بين كتاب الدولة اليهودية وبداية الاستعمار الصهيوني، لم تحرز مجموعات المستوطنين اليهود في فلسطين سوى تقدم ضئيل Little Progress"(٢).

وكتاب: الدولة اليهودية Der Judenstaa، نشره هرتزل سنة ١٨٩٦م، وعلى ذلك فبداية الاستيطان الصهيوني المنظم لفلسطين كانت في سنة ١٩٠٨م، وكان خلف تحول الحركة الصهيونية نحو الاستيطان سببان تواكبا معاً.

---

1) The Complete Diaries Of Theodor Herzl, Vol. IV, P1600.
2) Short History Of Zionizm,P57, 63.

فأما السبب الأول، أن هرتزل مات في يوم ٣ يوليو ١٩٠٤م، واختارت لجنة العمل الداخلية في المنظمة الصهيونية، دافيد وولفنسون، رئيس البنك الصهيوني، رئيساً للمنظمة خلفاً لهرتزل، وبعد موت هرتزل صعد في الحركة الصهيونية تيار الصهيونية العملية Practical Zionism، الذي يرى أنه يجب الهجرة إلى فلسطين واستيطانها دون انتظار نتائج المفاوضات السياسية.

وفي المؤتمر الصهيوني الثامن، الذي انعقد في لاهاي، في أغسطس ١٩٠٧م، ثار خلاف بين أنصار الصهيونية السياسية ودعاة الصهيونية العملية، وانتهى بالاتفاق على تضييق الفجوة بينهما، عبر السير في المسارين معاً، وأصدر المؤتمر القرارات التالية:

"تأسيس مكتب فلسطيني للحركة في يافا، تحت إدارة دكتور آرثر روبين Arthur Ruppin، المتخصص في الاقتصاد والاجتماع اليهودي، واتخاذ العبرية لغة رسمية للمنظمة الصهيونية، واستخدامها بالتدريج في جميع أجهزتها، وأن رئيس المؤتمرات القادمة يجب ألا يكون رئيس المنظمة ولا أحد أعضاء لجنتها التنفيذية"[1].

الهند والهة ومصر حزينة .. تبكي عليك بمدمع سحاحِ:

وأما السبب الثاني خلف بداية الاستيطان الصهيوني المنظم لفلسطين، فهو:

"في سنة ١٩٠٨م، شهدت تركيا حدثاً أعاد الأمل للقضية الصهيونية، وكان هذا الحدث هو ثورة الشبان الأتراك Young Turks، الذين خلعوا السلطان، وأسسوا حكومة دستورية Constitutional Government، ومن أجل مواجهة الحملات المناهضة للصهيونية، قررت اللجنة التنفيذية تعيين ممثل سياسي لها في القسطنطينية/الأستانة، فأرسلت دكتور فكتور جاكوبسون Victor Jacobson، مديراً لفرع المؤسسة اليهودية للاستعمار Jewish Colonial Trust، الذي تم افتتاحه في العاصمة العثمانية، تحت اسم شركة البنك الأنجلومتوسطيAnglo Levantine Banking Company، وأَوْلى دكتور جاكوبسون عناية كبيرة للصحافة، وبالتمويل الذي وفرته له اللجنة التنفيذية في المنظمة الصهيونية

---

1) Short History Of Zionizm,P57, 62.

أسس صحيفتين بالفرنسية، إحداهما يومية وموجهة لعموم الناس، والأخرى الأسبوع الصهيوني Zionist Weekly، وبذلوا جهوداً كبيرة لاستمالة المجتمع اليهودي إلى القضية الصهيونية، في مواجهة معارضة شديدة من حاخام باشي/كبير الربانيين في الأستانة Haham Bashi، ولكنهم نجحوا في ضم يهود سالونيكا بقيادة كبير الربانيين جاكوب مائير Jacob Meir، وأصدر وولفنسون تصريحاً قال فيه إن أهداف الحركة الصهيونية سوف تكون في انسجام تام Complete Harmony مع روح الدستور التركي"[١].

فمع خلع السلطان عبد الحميد، رحمه الله، ووصول حركة الاتحاد والترقي الماسونية اليهودية إلى السلطة في تركيا، وتشكيلها لحكومة من ثلاثة عشر وزيراً، أربعة منهم من اليهود الصرحاء والأخفياء، ومع تحول الأستانة نفسها إلى مركز للنشاط الصهيوني، انفتحت أبواب فلسطين لليهود، وبدأ الاستيطان الصهيوني المنظم والمكثف لها، إلى أن نشبت الحرب العالمية الأولى، ووقعت فلسطين، بمعاونة البلاليص، بين أنياب القوات البريطانية، التي كان يقودها الجنرال الماسوني أللنبي Allenby، وكان من ضمنها فيلق صهيوني من ثلاث كتائب تم إنشاؤها وتدريبها، صدق أو لا تصدق، في مصر، ووقَّعت الحكومة المصرية التي يرأسها حسين رشدي باشا اتفاقية للاشتراك مع القوات البريطانية في الحرب، وأرسلت كتائب من الجيش المصري لكي تقاتل كتفاً بكتف إلى جوار أختها الكتائب الصهيونية!!

وهاهنا تكون قد انتهت مرحلة البذور غير المرئية في المشروع اليهودي، وانتقل المشروع الساري عبر التاريخ إلى خطواته التالية، وهي خطوات سياسية عسكرية صريحة، والحقيقة أن مرحلة البذور في المشروع اليهودي في الشام، اكتملت بظهور كتاب الدولة اليهودية لهرتزل وإنشاء الحركة الصهيونية، التي هي ثمرة هذه البذور، ولولاها ما كانت.

وما نريد منك الآن أن تفعله وتدركه، هو أن تعيد قراءة الكتاب الذي بين يديك من الخلف إلى الأمام، أو أن تقرأه معكوساً فتبدأ بنهايته عائداً نحو بدايته، لكي تدرك أن الأحداث ليست كما يفهمها الأميون في بلاليص ستان، تحدث فجأة وبسبب ما لابسها من ظروف الزمان والمكان فقط، بل هي خطوات في مسار يولد كل حدث فيه من سابقه ويمهد بما ينتجه من آثار للاحقه،

---

1) Short History Of Zionizm,P60-61.

وهذه الخطوات محكومة بالمسار الذي أنتجها وتسير داخل جدرانه، وقد تتأخر خطوة أو يعرقل حدث يتقاطع معها حدوثها، أو حتى يعيدها إلى الخطوة التي كانت قبلها، لكنها لابد ستأتي طالما ظل المسار كما هو ولم يتغير.

وقد تصل قوة حدث إلى أن يغير مساراً أو يزيله، وحينئذ سوف ينشأ مسار جديد، وكل ما سوف يأتي فيه بعد ذلك من أحداث، فهو من توابع الحدث الأول وآثاره، وسوف يكون محكوماً به وداخل جدران المسار الذي بدأه، وكل من تَصدَّر حدثاً او صنعه أو أسهم فيه، داخل مسار، فيعود عليه ثوابه أو يبوء بإثمه، أما الذي صنع الحدث الأول وغيَّر المسار فيبوء بإثم المسار كله، وكل ما أفرزه وترتب عليه من آثار ونتائج.

وأي إصلاح داخل المسار الفاسد هو بالضرورة إصلاح جزئي ومنقوص، لأن الإصلاح الكامل والشامل لا يكون إلا بنسف المسار الفاسد كله، والخروج منه إلى مسار الصلاح.

فإذا فهمت ذلك، فسوف تدرك أن إنشاء الدولة اليهودية ثم تمددها، هو الخطوة الأخيرة والنهائية في مشروع ومسار، وكانت الخطوة السابقة لها ظهور هرتزل وكتابه الدولة اليهودية وتكوين الحركة الصهيونية، والحركة الصهيونية ما كانت لتوجد وأفكار هرتزل عن دولة يهودية في فلسطين ما كانت لتولد في رأسه، لولا أنه ظهر في زمان وجد فيه مصر مفصولة عن بلاد الإسلام وتحت سيطرة بريطانيا، والشام معزولة عن الدولة العثمانية وسلطتها فيها ضعيفة، وقناصل الإمبراطوريات الماسونية يسرحون فيها ويمرحون وسلطتهم نافذة فيها بالقوة والأمر الواقع، وبريطانيا قد سيطرت على الشام ووضعت أقدامها في القدس، واليهود تسللوا بالفعل إلى فلسطين والقدس وأقاموا المستوطنات، وذلك كله ما كان ليكون من غير الضربات التي وجهها أول الآتين من الخلف وخريج حارة اليهود اليونانية للدولة الجامعة لبلاد الإسلام، وفكك بها الشرق، وموالاته للإمبراطوريات الماسونية التي أنشأت له دولته وجيشه، وفتحه أبواب مصر والشام وفلسطين والقدس لهم ولليهود وتمكينهم فيها، وإزاحته للإسلام من تركيب السلطة في مصر والشام، وإطاحته بالعلماء وأهل الحل والعقد، وإزرائه بالمسلمين وتصعيده للأقليات، كل ذلك عامداً متعمداً عالماً بما سوف يترتب على ما يفعله، كما رأيت.

فأول الآتين من الخلف هو الذي انحرف بالشرق، وقطع مساره الإسلامي وشق مساره اليهودي، وهو صانع الأحداث الأولى التي بدأ بها هذا المسار اليهودي، وتحول بها الشرق إلى محضن للمشروع اليهودي، ولذا فهو، وليس هرتزل، البطل الحقيقي للمشروع اليهودي.

دكتور بهاء الأمير

القاهرة

١٤ جمادى الآخرة ١٤٤١هـ/٨ فبراير ٢٠٢٠م

دكتور بهاء الأمير

- **المؤلفات:**

١	كوسوفا، المذابح والسياسة، دار النشر للجامعات.
٢	النور المبين، رسالة في بيان إعجاز القرءان الكريم ، مكتبة وهبة.
٣	المسجد الأقصى القرءاني، دار الحرم للتراث.
٤	الوحي ونقيضه، بروتوكولات حكماء صهيون في القرءان، مكتبة مدبولي.
٥	اليهود والحركات السرية في الحروب الصليبية، مكتبة مدبولي.
٦	اليهود والماسون في الثورات والدساتير، مكتبة مدبولي.
٧	اليهود والماسون في ثورات العرب، مكتبة مدبولي.
٨	شفرة سورة الإسراء، بنو إسرائيل والحركات السرية في القرءان، مكتبة مدبولي.
٩	بروتوكولات حكماء صهيون، تقديم ودراسة، مكتبة مدبولي.
١٠	الانفجار الكبير، ماذا غير القرءان في العالم وماذا أحضر للإنسانية، مكتبة وهبة.
١١	تفسير القرآن بالسريانية دسائس وأكاذيب والأصول القبالية لتفسير الحروف المقطعة بالسريانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٢	النازية واليهود والحركات السرية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٣	التفسير القبالي للقرآن وفقه البلابيص، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٤	ولي الأمر المتغلب وهندسة المعيار والميزان، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٥	اليهود والحركات السرية في الكشوف الجغرافية، وشركة الهند الشرقية البريطانية، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٦	بلاليص ستان ١، أول الآتين من الخلف، مطبوع على نفقة المؤلف.
١٧	بلاليص ستان ٢، بذور المشروع اليهودي في الشام، مطبوع على نفقة المؤلف.

- **دراسات ومقالات منشورة على الإنترنت(•):**

١	يهود الدونمة.

(•) روابط الدراسات في مدونة صناعة الوعي، ومدونة عالم الوحي على الإنترنت.

٢	اليهود والماسون في قضية الأرمن.
٣	حركة الجزويت اليسوعية.
٤	عن الإخوان والماسونية.
٥	معركة المادة الثانية من الدستور.
٦	قواعد في إدارة الصراعات والتعامل مع الأزمات.
٧	عن الفتنة والديمقراطية والحركات الإسلامية.
٨	نقد كتاب اليسوعية والفاتيكان والنظام العالمي الجديد.
٩	نقد استخدام حساب الجُمَّل والأعداد في الاستنباط من القرءان.
١٠	حقيقة ما يحدث في مصر.
١١	فرعون بين التوراة والقرءان.
١٢	المسألة الإخناتونية.
١٣	معركتنا مع اليهود نموذج قديم وأحداث جديدة.
١٤	الفريضة الغائبة عما يحدث في مصر، العلماء والميزان.
١٥	الشميطاه واليوبيل.
١٦	القبالاه والموسيقى.
١٧	نقد نظرية الأكوان المتوازية.
١٨	البِتكوين، العملة المشفرة.
١٩	حوار مع قادياني.
٢٠	قضية تحرير المرأة.
٢١	أصول دراسة إسلام بحيري عن سِن السيدة عائشة عند زواج النبي بها.
٢٢	رد على نقد بخصوص كتاب شفرة سورة الإسراء:١ ،٢ ، ٣.
٢٣	اليهود الأخفياء.
٢٤	رسم المصحف وكلمات القرآن.
٢٥	اليهود والاشتراكية.
٢٦	المملكة وأردوغان.

٢٧	حفظة الأكلشيهات.
٢٨	اليهودي كرستوفر كولمبس ومشروع المارانو.
٢٩	يهود الخزر.
٣٠	الأزمة في الجزائر وأزمة الشرعية في الدول العربية.
٣١	أحداث الحادي عشر من سبتمبر.
٣٢	الأرض المسطحة.
٣٣	آل عثمان حماة مياه الإسلام.
٣٤	الإسلام والحركات الإسلامية والثورات
٣٥	حوار مع كائن فضائي.
٣٦	الخلافة والمُلك والدولة العثمانية وبلاليص ستان.
٣٧	جوته والإسلام والماسونية.
٣٨	نقد كتاب السامري الساحر المصري الذي أسس الماسونية.
٣٩	السلطان عبد الحميد وعبد الرحمن الكواكبي.
٤٠	القبالاه روح عصر النهضة والتنوير.
٤١	العراقيل أمام دراسة المسألة اليهودية في بلاليص ستان.
٤٢	حكماء صهيون وبروتوكولاتهم.
٤٣	اليهود والسُلطة وحكم العالم.
٤٤	الفرق بين المماليك والآتين من الخلف.
٤٥	السلطان عبد الحميد وتيودور هرتزل.
٤٦	بريطانيا واليهود.
٤٧	نابليون الماسوني واليهود.
٤٨	مستوطنة في سيناء.
٤٩	مقدمة وتعليقات على كتاب: المؤامرة الكونية، ليان فان هيلسنج، وترجمة: م/أحمد حمدي.
٥٠	درجات الماسونية ومراتبها وكلمات السر والمرور.

- **قصص قصيرة:**

١	جيفارا.
٢	مجاهد بن عبد الله الأزهري.
٣	علميها رمي الحجر.
٤	أبو خربان.

- **المرئيات(*):**

أولاً: مع الكاتب والمفكر الإسلامي جمال سلطان في برنامج حوارات بقناة المجد:

١	بروتوكولات حكماء صهيون، في مواجهة دكتور عبد الوهاب المسيري ودكتور أحمد ثابت.
٢	اليهود في الغرب، في مواجهة دكتور عمرو حمزاوي.

ثانياً: مع الشاعر المبدع والإعلامي اللامع أحمد هواس في برنامج قناديل وبرنامج كتاب الأسبوع بقناة الرافدين:

١	الوحي ونقيضه.
٢	المسجد الأقصى القرءاني.
٣	خفايا شفرة دافنشي.
٤	ملائكة وشياطين.
٥	دور الحركات السرية في إنشاء الولايات المتحدة الأمريكية والرموز اليهودية والماسونية في الدولار الأمريكي.
٦	القبالاه، التراث السري اليهودي ، وآثارها في العالم.
٧	التنجيم والأبراج، أصلها وحقيقتها.
٨	البلدربرج حكومة العالم الخفية.
٩	الرمز المفقود.
١٠	لماذا العراق؟ خفايا الغزو الأمريكي للعراق.
١١	نبوءة نهاية العالم، الأساطير والحقائق.

(*) مرئيات دكتور بهاء الأمير موجودة على شبكة المعلومات الدولية ، الإنترنت، في موقع يوتيوب وفي العديد من المواقع الأخرى.

١٢	البابية والبهائية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.
١٣	القاديانية والنصيرية، صِلاتها باليهود والغرب والحركات السرية.

ثالثاً: مع الإعلامي والداعية الإسلامي خالد عبد الله في برنامج مصر الجديدة بقناة الناس:

١	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الأول.
٢	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثاني.
٣	خفايا الماسونية ومنظمات المجتمع المدني، الجزء الثالث.
٤	الاحتفال الماسوني عند الهرم الأكبر، حقيقته والهدف منه.
٥	دكتور محمد البرادعي، مواقفه وأفكاره.

رابعاً : مع الإعلامي والشاعر والداعية الإسلامي دكتور محمود خليل في برنامج الدين والنهضة بقناة مصر ٢٥:

١	الفوضى في مصر، أسبابها ومن المستفيد منها.
٢	مصر بعد الثورة، الأخطار الداخلية والخارجية.
٣	رمضان شهر القرءان.
٤	الثورة والدولة.

خامساً : مع الإعلامي ياسر عبد الستار في قناة الخليجية:

١	الماسونية والثورات.

سادساً : في قناة الحدث :

١	من خلف الثورات.
٢	المشروع اليهودي وحروب الجيل الرابع.
٣	من هي إسرائيل؟
٤	يهودية إسرائيل.
٥	حقيقة الماسونية

سابعاً: في معرض القاهرة الدولي للكتاب ٢٠١٣م:

١	نقد كتاب: سر المعبد للأستاذ ثروت الخرباوي.

ثامناً: في عالم السر والخفاء، برنامج من إعداد وتقديم دكتور بهاء الأمير:

١	عالم السر والخفاء.
٢	جولة في عالم السر والخفاء.
٣	بيان الإله.
٤	الوحي.
٥	الطلاسم.
٦	في الملأ الأعلى.
٧	خريطة الوجود.
٨	الأمم المتحدة.
٩	حقوق الإنسان.
١٠	تحرير المرأة.
١١	اتفاقيات المرأة في الأمم المتحدة.
١٢	الهندوسية.
١٣	جمعية الحكمة الإلهية.
١٤	الحكيمة فوزية دريع.
١٥	حركة العهد الجديد والأمم المتحدة القبالية.
١٦	الماسونية وبناتها.
١٧	الوحي ونقيضه.
١٨	أخوية فيثاغورس
١٩	المخطوط العبري.
٢٠	قلب الماسونية.
٢١	وسائل الانفصال الاجتماعي.

تاسعاً: مقاطع وحوارات مصورة في المنزل:

١	بلاليص ستان: سبعة عشر مقطعاً.
٢	رد على نقد: أربعة مقاطع.

٣	الشورى والديمقراطية: أربعة مقاطع.
٤	أخطاء الإسلاميين: مقطعان.
٥	نبوءات: أربعة مقاطع.
٦	المادة الثانية من الدستور: خمسة مقاطع.
٧	التاريخ السري للغرب: ستة مقاطع.
٨	الوحي ونقيضه.
٩	العقائد والسياسة.
١٠	الناس من غير الدين بهائم.
١١	نفي الألوهية والخلق والوحي أصل الليبرالية والماركسية.
١٢	الأناركية.
١٣	حوار مع معالج بالطاقة.
١٤	علميها رمي الحجر.

- **السمعيات :**

١	برنامج في مكتبة عالم بإذاعة القرءان الكريم، ثلاث حلقات.
٢	برنامج مقاصد الشريعة بإذاعة القرءان الكريم، أربع عشرة حلقة.